

دكتور شوقي ضيف

مع

اقرأ



٥٠

٥٠/٦٥١٥٠٣



اقرأ

تصدر أول كل شهر
[٤٦٦] ١٥ فبراير - ١٩٨٥

رئيس التحرير أنيس منصور

ركنو شوقي ضيف

مع

الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبوسيف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في قرية بجوار دمياط كان يريض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتي فدان
 ملىء بالأسماك ونبات البردى وبأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل
 نهار كأنما تنتظر موعداً مضروباً ، مطلة برءوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها ،
 كأنها دموعها ، ويسمى أهل القرية والريف المصرى باسم البشنين ، وأوراقها
 تتضام ليلاً للنوم ، في شكل كأس زمردى ، وتفتح الأوراق في الصباح ، مع
 نسائم السحر وأندائه المتلألئة ، عن شعل ملهية متعددة الألوان بين لازوردى
 وأرجوانى وكهرمانى . وعند السيقان تستلقى أوراق عريضة مستديرة تتوسد المياه
 حول قامات البشنين الهيفاء ، كأنما تدعوها لتكتب عليها بمداد من حولها
 - لا ينفد - ما تشاء .

وفي الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المترلة بصياديها وشباكهم وبمياها الفضية

البراقة ، وكان سماء من البلور الناصع تمتد على سطحها المشرق الهادئ الساطع ،
والمراكب الشراعية تنهذى فيها مقبلة مدبرة ، متأيلة مع الريح - تمايل الأغصان -
بأشرعتها البيضاء ، المتفاوتة الأحجام ، وكأنما هي طيور سابحة بجناح واحد فريد ،
وتبتعد فتخالها حسنات منشورة على حدود البحيرة اللامعة البراقة . وتنجح إلى
المغيب فتخالها أهلة تغرب في الأفق السحيق .

وكان في واجهة القرية دور كبيرة بعض الشيء للأسر الموسرة فيها ، ومن ورائها
تتكسد دور متواضعة مرصوفة على جانبي أزقة ضيقة تتثنى وتتولى في غير نظام ،
تلوها ، وتأخذ بخناقها وتلاييبها ، لحجج من التراب يتناثر عليها دجاج وديكة وبط
مرجان وغير مرجان ، وفوق الدور هنا وهناك بعض أبراج للحمام ، وقبيل المساء
يطير منها في جماعات ، ويظل يمرح في سماء القرية ويدور ميامنا ومياسرا في حركات
راقصة ، حتى إذا غربت الشمس وأخذ ضوءها يخفى تدريجاً آوى كل مسرعا إلى
برجه وعشه لا يخطئه .

وفي نفس هذه اللحظات يعود الفلاحون إلى دورهم من الحقول بثيابهم الزرقاء
التي لا تملك كثرتهم سواها ، فهي وفؤوسهم التي يحملونها في أيديهم كل ما يملكون
من دنياهم ، ومعاذ الله أن يكون لأحد من سوادهم بقرة أو جاموسة ، فذلك
مقصود على ذوى اليسار من القرية ، أما جمهورها فقلا يملك واحد منهم شيئا
سوى جلبابه الأزرق وفأسه . وإن ملك يوما جديا أو خروفا كان من أسعد
السعداء ، ولم يكن يصحبه معه في الحقل الذى يعمل فيه حتى لا يرعى في حشيش
أرضه مع أبقار صاحبها الذى يعمل عنده وأغنامه ، وإنما كان يعطيه لغنم القرية ،
يضمه إلى قطيع غنمه الذى يذرع به أزقة القرية في الصباح والمساء ، وهو يصبح
عليه بصوته الغليظ هاشاً عليه بعصاه متجها به إلى شواطئ الترع ليشف بأفواهه
ما تبقى عليها من حشائش ، ومعه في تجواله وراءها كلب ، دائما ينبج كل غاد

ورائح ويصبص بذنبه ويلوّح به .

وتنمّ دور الفلاحين العاملين المتواضعة عما يداخلها من ضنك وإعسار ، فبعضها بُنى من طين لازب متلاصق ، وبعضها بُنى من حجارة لا تكاد تتماسك ، والدار عادة حجرتان معها أحيانا ردهة غير فسيحة ، قد تكون مدخلا تتبعه حجرة واحدة . ويكثر أن يكون للأسرة العاملة أربعة أولاد أو أكثر ، وهم مع أبويهم يُحشرون في الغرفة أو الغرفتين كما يحشر السردين في عُلبه ، والسعيد من أصحاب هذه الدور والأسر من كان لديه كرسي واحد أو كرسيان لاستقبال الضيوف . أما الأريكة أو الكنبه فلا يعرفونها ، ولا يعرفون التمارق أو الوسائد ولا الأبسطه ولا السجاجيد ، إنما يعرفون الحصر كما يعرفون الأكواب المنسوجة من ورق البردى ، وقد يفرشون القش . : قش القمح أو الأرز في بعض الأركان .

ولا يعرف أحد منهم الفراش الوثير ، فالأسرة من جريد النخل ، ولا سرير من نحاس أو خشب أو حديد ، وعلى الأسرة بعض الحشايا المحشوة بالقش أو ببعض الحشائش . ويعود الفلاحون إلى هذه الدور في المساء ، وما يكادون يستقرون بصحبة نسائهم وأبنائهم حتى يسمعوا أذان العشاء ، والمؤذن يجلجل بصوته : الله أكبر ، فتتهز أرجاء القرية ويتردد صدى الأذان في كل دار . ويفد الفلاحون أو كثير منهم على المسجد لصلاة الجماعة ، حتى إذا أدّوا الفريضة عادوا إلى دورهم ليتناولوا العشاء مع أسرهم ، كلّ حسب ما استطاع جلبه إلى أسرته .

والعشاء هو الأكلة الأساسية أو الرئيسة في القرية والريف المصرى ، بعد أن يعود الفلاح وصاحب الحقل من العمل طوال اليوم . وكثيرا ما يتألف العشاء في القرية من الأرز والسملك ، الأرز مما ينحيه الفلاح من الحقل ، والسملك مما يحمله إليه المستنقع والبحيرة وقنوات الري . وكانوا يعرفون الملاعن والسكاكين وقلما استخدموها في طعامهم ، أما الشوك بأصابعها الدقيقة المديبة فلم يعرفوها أبدا

وكانوا يستضيئون بمصابيح الغاز ، ويندر أن تظل مضئة في دار بعد تناول العشاء . وما تلبث القرية أن تخلد إلى السكون ، ولا ضوء ولا شعاع إلا في الليالي المقمرة ، أما الليالي الأخرى فيلقها ظلام دامس ، ولا حركة ولا ما يشبه الحركة ، ولا صوت ولا همس ، بل صمت مطبق يخيم على كل شيء إلا أن يُسمع من حين إلى حين صباح الديكة الذي يرنُّ - كالأجراس - في كل الأنحاء . وتغطُّ القرية في نوم عميق حتى السحر وتبشير الصباح حين يخترق أذان الفجر حجاب الظلام إلى السماء ، والمؤذن يصيح : الله أكبر ، فتتجاف جنوب كثيرة عن المضاجع ، ويصيح في الناس : الصلاة خير من النوم فيهبون من مراقدهم ويسرعون في سيرهم إلى المسجد للصلاة .

ويتفلت من أضواء الصباح شعاع إلى كل دار فيستيقظ جميع من فيها ، وكأنما يغسل هذا الشعاع غبار النوم من عيونهم ، وتبادر فتاة كل دار ، فتحمل على رأسها البلاص خاويًا ، وهو جرة كبيرة من الفخار لها عُروتان . وتنادى الفتاة بعض رفيقاتها فيسرن معاً وعلى رءوسهن البلايص أو تلك الجرار الكبيرة ، ويمضين إلى التربة فيملأن جرارهن ، ويضعنها على رءوسهن في وضع محكم غاية الإحكام ، وكأنما وضعت بميزان لا يحيف ولا يحور أبداً ، وهن لذلك لا يُمكن بها ، إذ لا تميل بمئة ولا يسرة ، فقد أصبح ثباتها على رءوسهن كأنه جوهر دخل في تركيبها ، وفي أثناء سيرهن يتحدثن ويتضحكن ، حتى تصل كل منهن إلى دارها ، فتدفع بجرنتها إلى زير مُعد لذلك تجده فيه أسرتها حاجتها للشرب والرى طوال النهار ، وهو منظر مألوف في قرى مصر حتى اليوم ، منظر بديع ، إذ ترى الفتيات يحملن في الصباح الباكر هذه الجرار الكبيرة المليئة بالماء ، وكل فتاة تختال في مشيتها ، كأنما تريد أن تعلن إلى أبويها وأهلها أنها ستظل دائماً ترعاهم وتحمل إليهم - ما استطاعت - الشراب والغذاء .

وكل ذلك قبيل شروق الشمس ، حتى إذا أطلت من الأفق بطلعتها وأضواها
البهية فتحت لها الزروع صدورها الندية ، فعانقتها وطوقتها بقلائدها الذهبية .
وحينئذ ترى الفلاحين شيئا وشباناً ماضين إلى الحقول بفئوسهم . ويتبعهم بعض
نساء القرية وفتياتهن من أسرها المتواضعة ممن يعملن في الحقول مع الرجال والفتيان
جنباً إلى جنب . يبدُرْنَ الحب . ويسقِن الزرع ، ويشتلن - أو يفرسن - شتلات
الأرز وغروسه ، ويتزعن أوراق القطن المصابة من فروع الخضراء ليصبح معافى
من الآفات . حتى إذا نفتتح لوزه أو كُرَّاته وثماره وتهدلت خُصله البيضاء الناصعة
أخذن يجمعنه ويخنيه ، وهن يغنين أهازيجهن الريفية .

وجميعهن لا يعرفن البرقع ولا الحجاب فهن مثل أخواتهن في ريف مصر دائماً
سافرات . فحجابهن وبرقعهن الحياء المتفرق في أسارير وجوههن . وهن لا يعرفن
الثرثرة ولا النظرات المغرية ولا الإيماءات والغمزات الكاذبة . فالبراءة تتألق على
جباههن .

وكما أن للرجال والشباب من أهلهم الجلباب الأزرق لا يخلعون . كذلك هن
الثوب الأسود سواد الطين الذي يعملن فيه لا يزايل أجسادهن . فهوكل ما يملكن
وكل حليهن وزينتهن ، لا يعرفن شيئا وراءه إلا ما يرينه على نساء الموسرين في
القرية . لا يعرفن الثياب الملونة ذات الحمرة القانية أو الزرقة الصافية . ومعاذ الله
أن يعرفن الثياب الشفافة والأخرى الحريرية المزركشة . ومعاذ الله أيضاً أن يعرفن
المساحيق البيضاء بياض الياسمين أو الحمراء حمرة الورد والياقوت .

ومع ذلك فكثيرات من هؤلاء الريفيات البائسات تجرى في وجوههن نظرة
الحياة بأكثر مما تجرى في وجوه كثيرات من بنات الموسرين في القرى أو البنات
الحضرريات لفارق مهم هو نفس فاروق الأزهار التي تعيش طليقة في الطبيعة ناعمة
بمهداها من التربة وما يختصنها من أشعة الشمس وبما يتلأأ عليها سحرا من حَبَّات

الندى ، والأزهار الأخرى التي تعيش حبيسة في الأصص والظلال داخل البيوت
والجُثران .

وحقا كان يحفّ بحياة الأسر المتواضعة في الريف بؤس كثير ، غير ان من الحق
أيضا أنك كنت دائما ترى البسمة ترفّ على عيون الجميع نساء ورجالا وفتيات
وفتيانا وعلى شفاههم ، وكأن الأمل في حياة أفضل وأبهج وأروع لم يكن يزايلهم
أبدا ، إذ لا يزال يتسلل إلى نفوسهم تسلل أضواء الفجر أواخر الليل في الآفاق .

لأسرة من أسر السكان في واجهة القرية وُلد طفل لأبوين فرحانه ، لا لأنها لم يرزقا ولدا ذكرا قبل ذلك ، بل لقد رزقا ولدين قبله ، غير أن الموت اختطفهما سريعا ، ولعل ذلك ما جعل أمه تبالغ في رعايتها له وعطفها عليه عطفًا لم يبرح ذاكرته يوما ، وكانت بارةً بزوجها الشيخ العالم ، فهي دائما تعزه وتجلّه ، لا لأنه كان ابن خالتها فحسب ، بل أيضا لأنه كان دمث الخلق لا يصدر في شيء إلا حسب مشيتها ، إذ استقرّ في نفسه أنها حصيفة وبعيدة النظر . وحقًا كانت كذلك ، وكان قلبها ينطوى على رحمة بالغة للضعيفات والضعفاء من حولها ، رحمة ترافقها إرادة حازمة صلبة ، وشيثا من إرادتها المصممة ورثة الطفل فيما ورثه عنها من الشيم والأخلاق .

وأحست في أوائل رضاعتها لطفلها أنه لا يجد عندها غذاءه الكافي ، وكان ممن

يترددن عليها من نساء القرية المتواضعات أم لطفلة ثكيت زوجها حديثا تاركا لها ابنتها في مهدها ، فسألته هل تجد عندها ما يكفيها من الغذاء ، وأجابته على الفور : إنه يزيد عن حاجتها ، ولينك تعطيني طفلك فإنني أضيف بما يبقى من ابنتي ، وناولته لها ، فضمته إلى صدرها ، وظلت تختلف كل يوم لتشارك في رضاعته ، وبذلك ضم الطفل إلى أمه أما ثانياً مرضعة ، وكانت له أخت تكبره فضم إليها بالرضاع أختاً ثانية .

وكان الأب قد أكمل تعلمه في المعهد الأزهرى بدمياط ، وعزف عن أن يتقلد وظيفة من وظائف رجال الدين ، فعاد إلى قريته قبيل اقترانه بأم الطفل مكثفاً بمزرعة صغيرة تعوله هو وأسرته . ومنذ مشى الطفل وأخذت تنحل عقد لسانه كان يرى أباه في كل صباح يقرأ شيئاً من كتاب الله وبعض الأوراد في كتاب دلائل الخيرات . وكان الأب سمح النفس محبوباً من أهل القرية لا لدروسه الدينية التي كان يعقدها لهم في المسجد أحياناً بين صلاحي المغرب والعشاء فحسب ، ولكن أيضاً لسعيه لهم - بقدر ما يستطيع - في مصالحهم غير منتظر منهم أجراً ولا شكراً . وكان الطفل كثيراً ما يرى في يد والدته سبحة تذكر الله عليها وتسبح بحمده ، محرقة خرزاتها خرزة بعد خرزة حتى تبلغ المائة عدداً ثم تبدأ من جديد نفس الدورة . وكانت على الحائط سبحات أخرى معلقة ، ولم يكن أبوه يستخدمها ، فهو يسبح الله ويذكره كثيراً عقب الصلوات ولكن دون حاجة إلى سبحة وخرز يعدُّ عليه ذكره وتسبيحه ، وكان يكثر من تلاوة القرآن الكريم كلما وجد فراغاً وخلا إلى نفسه ، فهو سلواه وريحان فؤاده .

وكل ذلك كان القطر والندى والأريج والشذى الذي تفتح فيه الطفل كما تفتح البراعم ، فاسم الله دائماً يتردد في أذنه ، بل ينقش نقشاً في صدره وعلى قلبه ، وتنقش معه محبة الخير لأبويه وشقيقته الكبرى ولأمه وأخته من الرضاع

ولكل من حوله ، ورث ذلك عن أبيه وأمه وكانا لا يعرفان بغضاً للناس ولا ضغينة ، وكأنما صنعنا طفلها على مثالها ، فنشأ لا يحمل ضغينة لأحد ولا بغضا أو موجدة .

وكان الطفل يبدأ يومه دائما بتحية أبويه ، ولم تكن التحية كلاما ، بل كانت تقبيلاً لليدين الكريمتين ، يد الأب ويد الأم : واجب يومي كان الطفل يؤديه صباح كل يوم كما يؤديه أطفال القرية من حوله ، بل كما يؤديه أطفال الريف المصرى جميعا . وقد أقلعت الكثرة من الأسر فى مصر الآن عن هذه العادة ، وخاصة الأسر المثقفة ثقافة عصرية أو التى تدعى لنفسها شيئا من المدنية كأنها تعد ذلك ضربا من العبودية أو من الذلة ، ولا أدرى من أين جاءها هذا الاعتقاد ؟ أغلب الظن أنه جاءها من بعض من رأوا الحياة فى الغرب أو تعلموا فيه ولم يروا هذه العادة هناك ، فظنوها عادة سيئة ، وهى إنما تكون سيئة أشد السوء إذا وُجِّهت لغير الأب والأم ، أما هما فحرى بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما تحلة لها واحتراما .

وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافى مرجعه إلى إبطال هذه العادة الطيبة التى كانت تحمّل الأب والأم إلى ما يشبه قدسين فى نظر الأبناء أما وقد أبطلت فلم تعد لهما عند كثيرين منهم هذه القداسة ولا ما كان لهما من الإجلال .

وكانت لجد الطفل مزرعة صغيرة بجوار القرية يمتد على مَرواها نخل مرصوص كثير : النخل العادى المعروف باسم نخل البلح الرملى ، ونخل آخر لا يدرى الصبى من أين جاء جده بغروسه ، لأنه كان لا يستحيل رطبا أبدا ، بل يظل فى عذقه حتى تزداد حلاوته جدا ويتجمع عليه كثير من الزنابير ، ويأخذ الجناة فى جنبه

وجمعه . وكان بالمرزعة بعض أشجار اللوت والجميز والرمان وورود ورياحين أربة .

وكانت المرزعة على قيد خطوات من دار الطفل فبمجرد أن خطا إلى الربيع السادس من حياته أخذ يتردد على المرزعة مسرّحاً الطرف في زروعها وثمارها . وكان من أروع ما يعجبه فيها النخل بقامته السامقة المهيبة وأجنحته العالية من السعف الأخضر الممتدة دائماً في الفضاء امتدادا كله جلال ووقار وأبهة وكبرياء . وكثيرا ما كان أبوه يصحبه معه إلى مزرعته لقضاء بعض أعمال بها وكان يفرح لهذه الصحبة وخاصة في المساء ، إذ يتاح له رؤية الشفق على أفق السماء الغربى ، وكأنه يصبغها بألوان مضيئة وردية وبنفسجية وياقوتية وذهبية ، وتتداخل الألوان بعضها في بعض بالطول والعرض ، مع شطب وخطوط وتموجات بهيجة . ويأخذ الشفق في الغروب ويختفى تدريجاً وكأنما الطفل في حلم ، فيفرك عينيه . ويستدير نحو نداء يسمعه ، إنه الخالب للبقرة يتأديه ، فيسير إليه ، ويتاوله قَعْب اللبن أو وعاءه ، وقد امتلأ إلى حوافيه ، فيعبّ منه حتى يرتوى ، طبعاً دون أن يُعْلَى ، دفعا لما قد يكون فيه من ميكروبات ، فأبناء الريف المصرى - وكثير منهم حتى الآن - لا يعرفون شيئا عن الميكروبات ، حتى ينجشوا منها على أنفسهم أذى أو ضرراً . وكانت أم الطفل تصحبه هو وشقيقته في الليالى المقمرة إلى سطح الدار ، ولم تكن دارهم وحدهم ، بل كانت دار الأسرة جميعها : دار الجد والأعمام ونساءهم وأولادهم ، ولكل أسرة فيها ركنها الخاص بها المكون من حجرتين وردهة واسعة ، وكانت الأم تصعد بابئنها إلى السطح للفرجة على أشعة القمر الفضية وهى تكسو البحيرة بأضوائها الساطعة . وتأخذ البحيرة أمام القرية شكل خليج واسع تستدير حوله الزروع وأشجار النخيل الشائعة في زهو وخيلاء . منظر لا ينسى الطفل مدى روعته في نفسه .

وكانت أخته كلما رأت بعض المراكب تتأيل مع الريح مصعدة أو منحدرة هملت ، والأم تحلق بعينها وهي ساكنة صامته . وكانت تظهر من حين إلى حين سفينة صيد عليها الصيادون وفي أيديهم الشباك يصيدون بها السمك ، وكانوا يعودون إلى القرية بمقادير منها كبيرة ، تزيد عن حاجتها فيبيعونها لتجار السمك ممن يتظرونهم صباح مساء .

وكانت أمام دار الصبي قناة يغسل فيها فتيات القرية ملابس أسرهم وأوعيتها ، وكنَّ يُحدثن ضجيجا ، وخاصة حين يسقط إناء من فتاة في قاع القناة أو يبعد عن يدها إزار أو رداء ، وكانت الفتاة تمسك حينئذ بيد إحدى رفيقاتها ، وتمد يدها الثانية إلى القاع بحثا عن الإناء حتى تجده ، أو ترسل تلك اليد وراء الرداء أو الإزار حتى تلتقطه وتعيده . وكانت بين مسجد القرية والقناة خطى قليلة تنأثر عليها بلاط ، ليخطو عليه المتوضئون ، وكان الطفل وأمثاله من الصغار والصبية لا يستطيعون أن يقفروا من بلاطة إلى بلاطة فكانت أقدامهم لا تكاد تلمس الأرض بين بلاطين حتى يضعوها بحذر على البلاطة التالية .

وكانت في القرية مدرسة أولية أخذ الصبي ينتظم فيها منذ السنة السادسة من حياته ، وكانت لأبناء سكانها عامة الموسرين منهم والمعسرين ، إذ لم تكن القرى الريفية تعرف شيئا من الفروق في التعليم بين أبناء الفتيين ، بحيث يكون لكل منها مدارس الخاصة كما في المدن ، فالجميع في القرية سواء يشتركون في كل شيء كما يشتركون في الماء والهواء . وحقا كان هناك الملاك وكان هناك الأجراء ، ولكن إذا أنعمت النظر واستقصيت وجدت بين الجماعتين رحا وقرابة ، فكل أسرة فيها من اتسع رزقه فلك العقار ومن ضاق رزقه واشتد ضيقه حتى لم يملك سوى جلبابه الأزرق وفأسه الذي يفلح به الأرض .

وربما كان هذا الصبي مثلا لقيام الأواصر في القرية بين الموسرين والمعسرين ،

فله أخت شقيقة من أبيه وأمّه ، وله أخت من الرضاع ، وأهل الأختين يختلفان يساراً وإعساراً ، ومع ذلك فالصلة بين الصبي وأخته وثيقة وهى صلة تقوم على الحنان والتعاطف الرقيق . وبالمثل كانت تقوم الصلات فى القرية بين جميع أهلها ، كأنهم أسرة واحدة ولذلك مظاهر كثيرة ، فابن المالك للأرض لا ينادى أجيراً أو فلاحاً إلا ويسبق اسمه بكلمة « عمى » أدباً لطيفاً . والملاك والأجراء يأكلون معاً فى المواسم والأعياد ، ومن كن يقيم على الخدمة فى الدور من الفتيات كن يأكلن مع صاحبة البيت وبناتها ولا يشعرن أبداً بشعور ذلة أو ضعة أو أنهن خادمات لسيدات أو سادة ، قرب البيت يتأدينه بلفظ عمى ، ويشعرن بحق أنهن يعملن فى دورهن لا مستأجرات .

وكما يجتمع الرجال فى المسجد للصلاة لا فرق بين موسر ومعر ، كذلك كان يجتمع أبناؤهم فى المدرسة الأولية للتعليم دون أى فارق فى الانتفاع به ، بحيث إذا أظهر أحد أبناء الأجراء أو الصبايين فى القرية استعداداً واضحاً للنبوغ والتفوق فى إكمال التعليم لم تُسدّ أمامه الأبواب ، بل فُتحت على مصاريحها اعتراضاً من القرية بابنها المتفوق النابغ .

وكانت المدرسة الأولية فى القرية حينئذ مدرسة مختلطة ، يختلط فيها البنون والبنات أو الذكور والإناث اختلاطاً طبيعياً . وكأن المدارس الريفية هى التى استجابت مبكرة لفكرة الاختلاط فى التعليم . وكان الإناث والذكور فيها يتنافسون فيما بينهم منذ التحاقهم بها فى سنوات حياتهم المبكرة ، وكأن التنافس فى حقيقته سمة من سنن الإنسان ، سنة فى نفسه وفى جوهره وطبيعته ، فهو دائماً يتنافس مع زملائه وزميلاته ذكورا وإناثا سواء فى المدرسة أو فى الحقل أو فى المصنع .

وكان التنافس على أشده فى المدرسة بين البنين بعضهم وبعض وبينهم وبين البنات ، وكان البنون أكثر تفوقاً فى دروس الحساب والمحفوظات بينما كانت البنات

يتفوقن عليهم في دروس الإملاء ، فكان المدرس القائم على المدرسة حين يُعَلِّم موضوعا تسرع بعض البنات بترداد الكلمة الأخيرة إيذانا أو إعلاما بأنهن انتهين من كتابة الجملة المملة ، وكان الصبي يبطئ في الكتابة ، ولا يستطيع - مهما حاول الإسراع - اللحاق بهن أبدا .

ولم يكن المدرس يشتد على التلامذة في التعليم مستخدما عصاه أو مقرعته أو مسطرة من حديد كان يضعها معها على منضدة بسيطة أمامه ، إذ كان يكفي - تخويفا لهم - بأخذ ابن له معهم بالشدة ، بل بالقسوة المتناهية حين يلفظ بكلمة خطأ أو يكتبها ويخطئ في بعض حروفها أو يغلط في حل مسألة حسابية فإنه كان حينئذ يضربه مؤثرا ضربه بالمسطرة الحديدية حتى لا يعود إلى غلظه أو خطئه ، وكثيرا ما كان يعود ، فيضربه بالمسطرة من جديد . ويظل التلاميذ والصبي معهم يشعرون بخوف ما بعده خوف ، ولا يعرف في هذا الزمن غير البعيد في أواخر العقد الثاني من القرن الحاضر ، هل كانت الهيئات المشرفة على التعليم الأولى في مصر تحرم - أو أنها كانت تحل - ضرب التلاميذ في الكتاتيب والمدارس ضربا مبرحا ، فضلا عن ضربهم بمساطر من حديد ، بأسها شديد .

و ذات يوم من أيام الصيف في سنة الصبي السابعة عرضت عليه أخته الشقيقة أن يذهب معها إلى مزرعة أبيه ، وكانت تبعد عن القرية بنحو كيلومترين ونصف أو أكثر قليلا ، فقال لها : إني أخشى كلاب الحراسة في الطريق أن تخرج علينا من بعض الدور أو من بعض الحدائق وتعضنا ، فقالت له : لا تخف ما دمت معك ، وما كادا يتقدمان في الطريق حتى سمع الصبي نباح كلب ، فوضع ذيل ثوبه بين أسنانه وأطلق ساقيه للريح ، فأسرعت أخته خلفه وأمسكت به وأقنعت أن الكلاب لن تعرض له ما دامت قد سلمت منه ولم يرمها ولا قذفها بطوبة أو حجر . وأنس لكلام أخته ، وسرعان ما عاد يرافقها ، وبالقرب من مزرعة أبيهما

سمعت كلاب حراسة وطء أقدامها على الطريق فنبحت وصاحت وصغبت ،
وجرى كلب منها نحوهما فجمد الدم في عروق الصبي ، وخشيت أخته عليه أن
يعضه الكلب فحملته ، وجرت تقطع الطريق ، ولم يرجع الكلب بل أسرع
وراءهما يصيح مقيظا مغضبا ، وتصادف أن كان رجل مارا بالطريق ، فلوح
للكلب بعصاه وزجره ورده .

ووصلا إلى المزرعة متعبين مجهدين ، فلم يحدا أباهما ، ومكنا فيها قليلا ، وفي
عودتها رأت الأخت أن تعدل عن الطريق المهد لما فيه من الكلاب وأن تشق
لنفسها وللصبي طريقا تخترق به المزارع ، واعترضها مسرب للمياه ، فقالت له :
هلم بنا نقفز هذا المسرب الصغير ، ولم تلاحظ أن الصبي أصغر من أن يستطيع
قفزه ، وشمزت ثوبها ، وقفزت وأصبحت في جانب والصبي في جانب ، ولم يعد
أمامه إلا أن يتبعها ، فرجع إلى الورا خطوات ، وجمع عزمته ، وأسرع في المشي
مشمرا ثوبه ، وقفز ، وإذا به في وسط المسرب ، وصرخت أخته كي يلحقها أحد
الفلاحين لإنقاذ الصبي ، وسرعان ما أغاثها واحد منهم ، فأنقذه .

ولم تكد أمها تراهما حتى سألت عن الخبر ، فلما عرفت ما جرى للصبي عنفت
أخته بشدة . وربما كان هذا الحادث هو السبب في أن الصبي لم يقبل بعده على
الاستحمام في التربة كمادة أبناء الريف ، فلم يتعلم السباحة ، إذ ظل يخشى الفرق
إن هو غامر مثل لدائه وسبح في التربة معهم .

وأخذ الصبي يكثر من القدو والرواح إلى مزرعة جده كلما سنحت له فرصة ،
ومع أنه كان يخاف من الاستحمام في التربة لم يكن يخاف من تسلق الأشجار ،
وكان يحب خاصة تسلق أشجار الجميز لسهولة التسلق عليها وسهولة القعود على
فروعها ، إذ تمتد وتستعرض وكأنها أذرع مرحة ، بل منها ما يشبه وسادة صغيرة ،
وكان الصبي يصعد كثيرا إلى تلك الأشجار لجنى جميزها .

وكان التسلق على النخيل أكثر صعوبة من التسلق على شجر الجميز ، ولكن جبال لون البلح وحمرة الساطعة كانتا تدفعانه دفعا - دون ريث - إلى صعود أشجاره وجنى البلح الأحمر من أعذاقه وشاريحه الطويلة ، وكان يعجبه منه الملوّن : ذو اللونين المتقابلين : اللون الأحمر واللون الضارب إلى الصفرة ، وكان اجتماع اللونين فيه يجعله أجمل وألطف شكلا . وحين يظهر في الشاريخ بعض الرطب كان يتسابق هو وبعض الصبية من أبناء عمومته إلى الصعود على النخيل لاقتناصه . ويؤنّ يعيد بين طعم هذا البلح الذي كان يحنّيه بيديه الصغيرتين وطعم البلح المائل الذي طعمه فيما بعد بالمدن حين شبّ عن الطوق وبعد عن الريف . وكذلك كل ثمار القرية مقرونة إلى ما يُجنّى منها ويرسل به إلى بعض المدن ، حتى الخيار ، فخيار الريف في حقله شيء آخر غير الخيار الملقى على العربات في المدن أو في الدكاكين ، لأنه طازج فحسب ، بل أيضا لأن جانبه هو طاعمه الذي يختاره بيده ، وهو في حقله . وقل ذلك فيما يختاره الصبية بالريف من الفواكه وغيرها ، فما يقطفونه يكون حبيبا إلى نفوسهم ، وكأن هذا القطف نفسه له تأثير في القاطنين ، تأثير بعيد .

ودائما يوجد فرق بين ما يقطفه الإنسان بيده وبين ما يقطفه له غيره ، وهو فرق ما بين إرادته ورغبته الكاملتين وإرادته ورغبته الناقصتين . ونفس رؤية المزارع على أشجارها شيء يختلف تمام الاختلاف عن رؤيتها مجموعة في الدكاكين ، وهل يمكن للدكان من دكاكين الفواكه أن يتيح لك رؤية البلح الأحمر في عذقه مثلا غارقا في أضواء الشمس ، أو رؤيته - وهي ساطعة عليه - مختلطا ببعض الرطب أو ببعض البلح المخدّد الملوّن .

وهذا نفسه ما لاحظته الصبي فيما بعد حين رأى الورود والرياحين في محلات الأزهار بالمدينة وما كان يراه منها في القرية ، فالوردة المزهوة التي كان يبصرها في

صباه رافعة الرأس على ساقها أو مائلة ميل خيلاء تختلف من كل وجه عن الوردة الغريبة المنكّسة في واجهات علات الأزهار ، فتلك وردة نابضة بالحياة دافقة بالنضرة ، وهذه وردة فارقت منبها وموطنها ، قُطفت من شجرها عنوة ، لتوضع في زهرية ، فهي تعطى اللون والشذى إلى حين ، ولكن لا تعطى الحيوية ولا مجموعة الألوان البراقة التي تعطيها الوردة حين تشرق عليها الشمس وحببات الندى تلمع على أوراقها ، وفي الظهيرة حين تنسكب فيها أشعة الشمس ، وفي المساء حين تفضى الشمس إلى الغروب وتستقبلها ألوان الشفق الزاهية . والوردة في كل هذا النعيم للطبيعة تتأيل على أغصانها والنسيم من حولها يداعبها طوال الليل والنهار ، وماء القنوات يجري منسابا متدفقا من تحتها ، والطير تغنى وتشدو ، وتملأ الحقول شدوا وغناء .

وكان مما يروع الصبي رؤيته الفلاحون وهم يشقون أديم الأرض بمحاريثهم ومائتت فيها من نصال الحديد مودعين في الأرض حبوب الزروع . وكذلك رؤيتهم وهم يروونها ويدفعون ماء الحياة إلى شرايينها الكثيرة بآلات يدبرونها منذ أقدم الأزمنة ، ظلوا جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ينقلون بها الماء من الترع إلى قنوات الزروع الصغيرة مستخدمين في ذلك طنابير أسطوانية منذ مئات السنين وسواقي كبيرة مؤلفة من دواليب ضخمة قائمة على آبار عميقة وقد بُنيت عليها قواديس أشبه بكيزان كبيرة . ويدير الدولاب عادة زوج من الثيران أو البقر أو الجاموس ، فتجوى القواديس فارغة إلى قاع البئر ، وتصعد زاخرة بمياه فضية تسيل في أكواب متسعة من القنوات والمراوى إلى الزروع رحيقا من النيل العذب . وفي أيام الفيضان كان يتضرّج الرحيق بحمرة الطمى رمزا لما يحمله إلى الزروع من دم الخصب ورغد العيش والحياة .

ودائما تُطرب السواقي سامعها في أثناء دورانها وجلّبا لماء النيل بلحون حزينة .

وكان كل ساقية في الوادي الأخضر الزمردى تبكى وتذرف الدمع على عاشق دفين . وماتني القواديس تحمل دموعها التي لا تنفد ولا تنفى أبدا . وعادة تدور السواقى نهارا أو ليلا . وكان يتصادف في بعض الليالى أن يستيقظ الصبي ويستمع إلى غناء الساقية وغناء سائقها الساهر معها . ويختلط الغناءان الشجيان ، فيطرب الصبي لما يرسلان من مختلف اللحن .

ولم تكن أم الصبي من القرية ولا من إحدى قرى دمياط بل كانت من قرية بجوار بلدة المترلة . وقد نشأ الصبي يرى في مكتبة أبيه كتب فقه وحديث مختلفة ، وكان جده شيخا مثل أبيه ، وكان لهذه النشأة في بيئة دينية أثر عميق في نفسه ، فقد نما عوده على محبة الإسلام ورسوله الكريم وإعزازهما وتقديرهما وتقديسهما . وكان في مكتبة أبيه بعض كتب تاريخية وأدبية مثل فتوح الشام وديوان ابن الفارض وقصة ماجدولين للمنفلوطي ، فكان الصبي ينظر في هذه الكتب وأمثاله أحيانا وفي بعض الكتب الدينية .

وكانت أم الصبي تعتر بأبيها اعترازا شديدا ، وكان قد توفى وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، وكان عمدة من عمد الريف على شيء من اليسار ولكن لم يكن من أهل الثراء ، وكانت ابته لا تزال تقص لطفليها عنه قصصا كثيرة ، وكيف كان يحبها ويدللها مع حزم فيه ، وتحكى من حزمه في تربيته وتربية أخ لها أن الأخ غضب يوما ، فلم يقبل على العشاء كمادته ، وعبتا حاولت أمه أن تسترضيه ليتناول عشاءه ، ولاحظ الأب ذلك فطلب من الأم أن تتركه وترفع العشاء وتعطيه مفتاح الغرفة الخاصة بالطعام ، ووضعه في جيبه ، وبات خال الصبي جائعا ، ولم يعد بعدها للغضب على الطعام ، بل كان يأكل ما يقدم له دون أى غضب أو ما يشبه الغضب .

وما أكثر ما قصت الأم على الصبي وأخته كيف كان يستشعر أبوها كرامته أمام

الحكام والكبراء ، وكانت تردد لها أن على مبارك الوزير المشهور في القرن الماضي أراد أن يشتري ضيعة من الدولة وحكمم نقرا من العمد حول بلدته « برمبال » القرية من المنزل ، ليقدروا له في الضيعة ثمن الفدان الذي سيحسب على أساسه ثمنها الكلى ، فكلهم رأى بماملته ، وقدر الفدان فيها بثمان بخت ، وسأل أباهما فقال له : ليست صحيحة هذه الأثمان التي قُدرت للفدان ، فثمنه الصحيح يزيد على ذلك كثيرا ، وسأله أن يعينه ، وأخذ برأيه . وربما كان لهذه القصة التي رددتها الأم على سمع الصبي كثيرا أثر في أن يحق فيها بعد الحق في آرائه وأحكامه ، فلا يداهن ولا يحامل ، غرس خلقى غرسه أمه في نفسه منذ بواكير حياته .

وكان الصبي يآلف جدته أم أبيه ويجلس إليها كثيرا ، وكانت تحكى له بعض ما سمعته من أخبار الفتوح الإسلامية مما كان يقرؤه جده لها ، إذ كان شغوفًا بتلك الأخبار وأيضا بأخبار الخلفاء . وكانت لا تزال تقصُّ على الصبي بعض الأقاصيص ، من ذلك أقصوصة حكمتها له عن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ظلت لا تبرح ذاكرته ، وموداها أنه كان مارا في موكبه ببغداد في أحد الأيام ، وحين وصل به الموكب إلى قصر أبيه الرشيد حانت منه التفاتة إلى نوافذه وشرفاته ، فرأى زوجة أبيه زبيدة تطلُّ للفرجة على موكبه ، وأحس أنها تتمم بكلمات ، فأوقف المأمون الموكب وصعد إليها ، فاستقبلته مرحبة ، وسألها عما كانت تتمم به من كلمات غير بيّنة ، فحاولت أن تمويه عليه وتخلص من سؤاله برفق ، ولكنه ألحَّ عليها واستحلفها بأبيه الرشيد . وكان قد نشب خلاف عنيف بينه وبين ابنها الأمين وتحاربوا ودارت الدوائر على الأمين وقُتل في الحرب ، فلما استحلفها بأبيه لم تربدأ من أن تذكر له بصدق ما كان يدور في نفسها من كلمات ، وقالت له ، أما وقد استحلفتني بأبيك الرشيد فأني أذكر لك بحق ما حدثتني به نفسي ، لقد كنت أتمم : ليت هذا الموكب كان لابنى الأمين ، وكان هو الذى انتصر على أخيه المأمون .

وطيب المأمون خاطرها ، وندم على ما كان منه من محاولة التعرف على ما جال في خاطر زوجة أبيه ، مما كانت تتم به وما كان من إصراره عليها في الإلحاح حتى سمع منها ما كان في غنى عن سماعه . واستأذن منها في الانصراف وهو يقول في نفسه نادما : لعن الله الإلحاح والملحين .

ولعل هذه الأقصوصة التي لَقَّتها الصبيَّ جدُّه وهو صغير السبب الحقيقي في أنه تعود أن يأخذ نفسه بأن لا يلح في أى شيء ، والأل يفكر في التعرف على أى خبر يمس شخصا مهما تكن صلته به ، وظل طوال حياته لا يزدري شيئا ازدراه للتطفل والمتطفلين الذين يتسقطون أخبار الناس . وهى خصلة زرعتها في نفسه هذه الجدة الريفية الأمية من جدات الجيل الماضى اللالى كن يعرفن كيف يلتقطن من الأقاصيص والأخبار ما يربين به أحفادهن تربية قديمة .

وبمثل هذه الأقصوصة كانت الجدات الأميات في جيل الصبي ما يزلن يحاولن تبصير الأحفاد بالحياة وما ينبغى أن يتحلوا به فيها من سلوك قويم . وكانت أم الصبي تحفظ ما لا يكاد يحصى من الأمثال وكانت تقول لابنها دائما : علمها لى أبى ، وكأنها كانت كل ثقافة الأمهات في جيل الصبي والأجيال الماضية ، وهن يحاولن ذكرها لأبنائهن لتسع خبرتهم بالحياة . وبدون ريب كان الصبية حينئذ يعدون فيها من الحكمة على ألسنة هؤلاء الأمهات ما لا يحده صبية اليوم في كثير من القصص المسمى بأدب الأطفال ، حكمة تصور الحياة في عبارات مركزة توارثتها الأجيال على صفاء النيل .

وجدير بأمهات الصبية في الجيل الحاضر أن يحتفظن بشيء من هذه الحكمة يغذين به أبنائهن ، ويبدو أنه لم يعد عندهن من الوقت ما يتيح لهن الحفاظ على ذلك لأولادهن ، فالعمل خارج المنزل في الوظائف كثير ، والمعرفة تشعبت وتراكمت في أذهانهم بحيث تصاعت منهن الحكمة البصيرة التى كانت لأمهاتهن في

منحنيات معرفتين المتنوعة ومنعرجاتها حتى لكأنما المعرفة المتراكمة والحكمة نقيضان لا يجتمعان . وحرى أن يتلافى ذلك المربون والمعلمون فيعرضوا على الصبية في الجيل الحاضر بعض طرائف الحكم التي تضيء لهم الحياة وتجعلهم يسبرون فيها على هدى بعيون أكثر يقظة وأحد بصرًا .

وكانت الجدة تقصُّ على الصبي أقاصيص كثيرة عن العجُنِّ والعفاريت ، وكانت تحكيها للصبي وهي شديدة الإيمان بها ، وخاصة أقاصيص الجن الذين كانوا يترامون في الليالي الداجية المظلمة لمن يسهرون على السواقي لرى الأراضى ، فهذا فلان الذى يعرفه الصبي مثلث له ست سيدات من الجن ذات ليلة ، وهو يسير خلف بقرتين مشدودتين إلى إحدى السواقي ، وكل منهن تحمل ابنا على يدها اليسرى ، ولم يتبادر إلى خاطره أنهم من الجن ، بل ظنهم من الإنس ، فصاح بهم ، فلم يلتفتن إليه ، فحاول الاقتراب منهن ، حينئذ تسعن كأنهن يردن السحوى والحديث سرا ، حتى إذا أصبح قاب قوسين منهن أو أدنى لم يروا واحدة منهن أمامه ، إذ اختفين وكان الأرض ابتلعتهن !

وكانت الجدة تقول للصبي إن الجن والعفاريت تتشكل أحيانا بأشكال بعض الحيوانات ، وقصت عليه فيما قصت من ذلك أن شيخا - وتسميه للصبي - كان إماما لمسجد تعود أن يذهب إلى أداء الصلاة به في الفجر ، ولاحظ أن هرا يسبقه إلى المحراب ويترك فيه بعض فضلاته ، فترصد له وقتله . وكان هذا الشيخ مأذونا يكتب عقود الزواج ، فدخل باب داره في الليلة التالية لمقتل امر رجلان معها مصباح وقال له ، جئناك كي نصحبنا لكتابة عقد زواج ، والناس مجتمعون ينتظرونك فلبس ثيابه ، وخرج معها ، وتقدمه الرجلان ومعهما المصباح ، وسارا به نحو القرافة ، ومضى معها آمنا ، إذ رأى على بعد سرادقا منصوبا وأنوارا . ودخل السرادق فرأى أناسا كثيرين في انتظاره ، ورأى ما يشبه محكمة منعقدة .

وصاح به رئيسها ، لقد جئنا بك لنحاكمك على قتلك نفسا بريئة بغير حق ، إذ قتلت في فجر الليلة الماضية هراً ، ولم تدرك أنه من إخوانك الجن ، وليس من حقت قتله ، فكيف قتلته ؟ وما السبب في قتلك له ؟ فقال : إننى قتلته ، لأنه تعود أن يرتاد محراب المسجد ويترك فضلاته فيه ولم أكن أعرف أنه من الجن . حينئذ تسارَّ القاضي مع صاحبه الذى على يمينه وصاحبه الآخر الذى على يساره ، ولم يلبث أن أعلن الحكم ببراءته ، ونظر الشيخ حوله فلم يجد قضاة ولا أناسا ولا سرادقا منصوبا ولا مصاييح مرفوعة وزاغ منه البصر ، وعاد إلى داره خائفا فزعاً .

وهى أقاصيص خرافية طبعاً فلا أناس ولا قضاة ولا سرادق ولا مصاييح ، كل ذلك لم يصره الشيخ ، ولا أبصر سائق الساقية نساء حاملات أطفالهن على أذرعهن ، وقد يكون هذا وذاك من بعض الرؤى والأحلام التى كان يراها بعض الناس فى نومهم ، فيظنونها حقيقة ويحكونها لمن حولهم . وربما جسمها لهم الوهم ، فظنوها حقيقة واقعة ، وهى ليست من الحقيقة لا فى كثير ولا فى قليل ، وكان لمثل هذه الأقاصيص الخيالية شيء من الأثر فى نفس الصبى . فنشأ يخاف من العفاريت ومن الجن ومن القطط .

وفى الحق أن القرية أثرت فى نفس الصبى آثاراً مختلفة ، فكانت أقاصيصها توحى إليه بخيالات كثيرة لا أساس لها من الواقع ، وأثرت زروعها ومشاهدنا الطبيعية من حوله فى حسِّه ، فنشأ يرنو إلى الجبال الطيعى وبحب الريف ومناظره حبا يملك عليه ذات نفسه : مناظر الحشائش وطفانفسها الخضراء والأرز والقمح وسنابلها الشقراء ، والقطن ولوزه يتفتح وتدلُّ منه خُصَله البيضاء ، وهنا وهناك أشجار النخيل المصعدة فى السماء حاملة أعذاقها ومشاعلها الحمراء والمياه تنهذى فى القنوات ، والبشنين كالطاووس يزدهى بألوانه ، والورود تتأيل مع النسيم مذبذبة

سِرَّ شذاها العطر ، وسقاة الأرض - في سكون الليل الجاثم على الحقول - يتغنون على السواقي ببعض الأغاني الريفية الساذجة التي طالما استمع إليها النيل وقنواته منذ آلاف السنين وكل ذلك كان يَسْكُب في نفس الصبي متاعا رائعا ما بعده متاع . وكان الصبي في هذه الأثناء يقدو إلى المدرسة الأولية شاعرا بما فيها من تنافس محتدم بين الذكور والإناث ، ويتنافس آخر كان لا يقل عنه احتداما ، بل لا ريب في أنه كان يزيد عنه حماسة واشتعالا ، تنافس كان متقدما بين أسرته وأسرته أخرى كان منها عمدة القرية ، أما أسرته فكان منها شيخ البلد . ومع أن أواصر القرني كانت وثيقة بين الأسرتين ، لكثرة ما بينهما من مصاهرات كانت كل منهما تنافس الأخرى منافسة حادة ، ولا يشترك في هذه المنافسة الرجال والشباب فحسب ، بل أيضا الصبية والناشئة . وكان لذلك آثار طيبة في اهتمام كل صبي من الأسرتين بأن يتفوق على صبيان الأسرة الأخرى فيما يحفظ من القرآن الكريم والأناشيد . وفي الحساب وغير الحساب .

وكان هذا التنافس يعود على الأسر في قرى الريف بنتائج طيبة كثيرة ، فالآباء ينشطون في الإنتاج الزراعي ليكون لهم قصب السبق فيه ، وحتى الصبية من أبنائهم ينشطون في المدرسة الأولية حتى يملأوا نفوس آبائهم غبطة بهم ، وحتى ينالوا لأسرهم بعض النقط في سباق التنافس الداخلي ، وهو سباق تمتد أشواطه إلى خارج القرية حين تتحول الناشئة من المدرسة الأولية إلى معهد دمياط الديني أو إلى مدارسها المختلفة .

والشيء الوحيد الذي دها الصبي من القرية جاءه نما كان يسودها من جهل بالطب والأطباء ، فقد رمدت عينه اليسرى وهو في المهد ، وأمه لا تزال تضمه إلى صدرها ، فلم يذهب به . أبوه إلى طبيب عيون ، إذ لم يكن في دمياط - على ما يبدو - طبيب عيون في العقد الثاني من القرن الحاضر ، فذهب به الأب إلى

طبيب كان يذهب إليه كثيرون من أهل القرية لفحص جميع أمراضهم وكان على هذا الطبيب حين رأى عين الصبي الرمداء أو المريضة وأن سحابة هبطت عليها أن ينصح أباه باستشارة طبيب عيون . وبدلاً من ذلك أجرى للصبي عملية في عينه ، وظن الأب أنها نجحت وهى لم تنجح فقد ظلت السحابة تمحجب نظر العين ، وفقد الصبي عينه اليسرى إلا بصيصاً ضئيلاً .

وكل ذلك حدث والصبي في المهد لا يدري عنه أى شيء ، فلما أخذ يخطو خطواته الأولى ومضى في الحياة لم يلاحظ هذا القصور في بصر العين اليسرى أو لعله لاحظته بوضوح ، غير أنه لم يهتم به أى اهتمام ، إذ كانت عينه اليمنى سليمة ونظره فيها قوياً كاملاً . وربما كان ذلك من أخف الأشياء التى كانت تحدث لأبناء الريف بسبب الجهل وانعدام الرعاية الصحية ، وكم من أطفال وصبية ريفيين فقدوا لا عيناً واحدة ، بل العينين معا ، بسبب نقص المعرفة والرعاية الطبية وسريان الجهل حيثئذ في القرى وانتشاره .

وكان الصبي يختلط ببلداته من أهل القرية ، ولم يكن يقع في نفسه أبداً أن هذا الصبي أو هذه الصبية من أسرة ميسورة ، وذلك الصبي أو تلك الصبية من أسرة متواضعة ، لسبب مهم ، هو وشائج القرى والرحم بين الفتيان من الأسر - مع أنه كان يلاحظ ما بينها من فروق في مآتم الأحزان واحتفالات الأفراح ، ففي المآتم كان يرى أهل الميت في الأسر المتواضعة يفرشون القش على الأرض أمام بيوتهم لمن يشاء الجلوس من المعزين ، بينما كان أهل الميت في الأسر الموسرة يضعون أمام بيوتهم كراسي للجلوس للمعزين .

وكان الصراخ والعيول يرتفعان في منزل الميت منذ صعود روحه إلى بارئها الأعلى ، غير أن نساء الأسر المتواضعة ربما بالغنَ فلطمن الوجوه وقرعن الصدور على موتاهم بينما نساء الأسر الموسرة يغلب أن يكظمن حزنهن . يصرخن ولكنهن

لا يخبش الوجوه ، وكثيرا ماكن يتركن ذلك لندابات محترفات يضعن على وجوههن شيئا من صبغ النيلة ، ويتأدين فى لطم خدودهن وقرع صدورهن - وربما استخدمن فيه حجرا - قرعا شديدا . وعادة يتقدم النعش الجنازة ويتبعه المعزون حتى إذا وورى الجثمان فى التراب أخذ أهله يتقبلون العزاء .

ويعود المعزون إلى مأتم الميت أمام داره ، فيتناولون بعض الطعام . وبعض دور القرية كانت تخرج منها إلى مأتم الميت صينية عليها بعض اللحوم أو الطيور المطبوخة أو ألوان من البقول مع كمية من الأرز وبعض الأرزفة مؤازرة لأهل الميت فى مأتمهم وفى استضافة من يشتركون فى جنازة الراحل من أهل القرى المجاورة ومن أهل القرية نفسها . إنه مأتمهم جميعاً وهم يشتركون فيه كل حسب وسعه وقدرته . وتظل القرية محزونة على فقيدها أياما ، والفقهاء يغدون ويروحون إلى مقبرته لتلاوة بعض القرآن . وقد يصنع أبناء الميت أو أهله له « صمديّة » اذ تتجمع طائفة كبيرة من القراء لتتلوا عند مقبرته أو فى بيته أو فى المسجد سورة الإخلاص مائة ألف مرة رجاء تقبله عند ربه .

وعادة يذهب أهل القرية لزيارة موتاهم كل يوم جمعة حاملين معهم شيئا من سَعَف النخل الأخضر ، ليضعوه فوق القبر ، وبعض الفطير والبلح أو المر ليفرقوه على بعض المحتاجين حسنة على الميت . وكان الصبى يبصر ذلك كله ويؤثر فى نفسه . وخاصة أنه تصادف أن إخوة له توفوا وهم لا يزالون فى براعمهم قبل أن تفتح تلك البراعم عن أزهارها الغضة الناضرة ، وكانت أمه لا تزال تذكرهم وتبكيهم أحيانا ، وسرعان ماكانت تكفكف من دموعها راضية بقدرها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وكانت أفراح القرية تشدُّ الصبى بأكثر مماكانت تشده المآتم ، إذ كانت الزغاريد تنطلق من بيت العروس والعروسة ، فيشعر كأن القرية جميعها ترقص

طرباً. وكانت تسبق ليلة زفاف العروسين أو كما كانوا يسمونها ليلة «الدخلة» ليلة تعرف باسم ليلة «الحنة» والحنة مسحوق يباع عند العطارين ، كانوا يشترونه منهم ، ويمزجونه بقليل من الماء حتى يصبح كالعجين ، ويشدونه بأربطة على كفوف العروسين وأقدامهما حتى الصباح ، فيفكون الأربطة ، وتبدو الكفوف والأقدام أشد حمرة من الباقوت . وقد يستخدمون في وضع الحنة بالأكف والأقدام مناقيش ، فنبذو في هيئة أكثر جالا ، ويشارك في هذا الصنيع جميع العرسان والعرائس في الأسر الموسرة والمتواضعة .

وكثير من الأسر الأولى كان يبالغ في ليلة الدخلة والاحتفال بها ، إذ عادة تقيم الأسرة مأدبة حسب طاقتها المالية ، وقد تستقدم جوقة موسيقية وأخرى من «العالم» لزفاف العروسين ، بينما تكتفي الأسرة المتواضعة بعشاء لا يكلف كثيرا ، وبيعض العوالم المغنيات ممن لا يبالغن في أجورهن . ويستقبل العروس ضيوفه على باب داره .

وفي الأسر الموسرة كانت الموسيقى تعزف منذ الغروب ، وتُمدّ مائدة العشاء ، ويبدأ الزفاف بعد انتهائه ، إذ تأتي العروسة من دارها مع أمها ، ويستقبلها العروس ، وتتقدمهما العوالم المغنيات يضرين على الدفوف والصنوج حتى «الكوشة» وهي أريكة مرتفعة مزخرفة ، عليها بعض الزهور وبعض المصابيح المشتعلة ، ويجلس عليها العروسان بينما تغنى العوالم وهن يضرين على آلات الطرب . وطوال هذا الزفاف ينثر الأهل والأقارب على العروسين ما يسمونه باسم «التقطعة» وهي نقود معدنية وفضية ، يحبون بها العروسين .

وزفاف العروسين في الأسر المتواضعة صورة مصغرة من ذلك كله ، فالعوالم قليلة محدودة ، وبدلا من أن يكون زفاف العروس جميعه بجوار زوجته على الكوشة يدعوه أصدقاؤه لزفافه في طرقات القرية وشوارعها وهم في أثناء ذلك يحيونه بأغان

ورقصات ريفية . ويعود إلى عروسته . ويجلس بحوارها قليلا ويتناول معها كوبا من شراب ، ثم ينهضان ويتركان المدعوين بين التهليل والتصفيق .

وكان الصبي يفرح فرح لداته ورفاقه في القرية بعيد الفطر وعيد الأضحى لما يلبس فيهما من ثوب وحذاء جديدين ، ولاخلافه مع صبية قرينته إلى أراجيح بسيطة ، غير أنها كانت عندهم أراجيح بديمة . وبالمثل كان يفرح الصبية بعيد شم النسيم لما تنهى أمهاتهم لهم فيه من بيض ملون ألوانا مختلفة بين أحمر وأخضر وأصفر وأزرق ، وكانوا يلعبون به فيما بينهم عن طريق قرع بيضة لصبي بيضة صبي آخر ، ومن كسرت بيضته عدُّ مهزوما . وإن لم تكن معه بيضة ثانية ذهب إلى أمه وجلب منها بيضة ، وعاد إلى التزل والعراك مع رفاقه .

ولم يكن الصبي يفرح بموسم كضرحه بموسم شهر رمضان إذ كان يعجب فيه إلى أقصى حد باشتعال مواقد النار بعد العشاء ساعات متوالية ، لما هو معروف من أن « السحور » في الريف يعدُّ الأكلة الرئيسة في رمضان ، فكانت الكوانين تشتعل بعد العشاء وتشتعل المواقد النحاسية لصنع طعام السحور ، وكان الصبي يحذ في مرأى. هذه النيران لذة كبيرة وخاصة حين ينظر إلى وجهها وإلى أطرافها وهي تتلون ألوانا شتى ، وكأنما يرنو إلى قوس قزح تحت بصره .

وكانت أمه كلما أمرته بالذهاب إلى النوم تعلل لها بأنه ينتظر السحور وهو إنما كان في الواقع ينتظر المسحراتي ، إذ كان مشغوقا بسماعه ، وهو يمسك بطبلة في يده ويضرب عليها بجلدة في يده الأخرى فترنُّ ويمتد رنينها ، وهو لا يمل ضربا لها وجلدا ، مع ترديده لأغان رمضانة يحاول بها وبضربه المتوالي على الطبلة أن يوقظ النّوام ، حتى يتهبثوا لتناول السحور .

وفي بعض المناسبات الكبرى التي كانت تمر بالقرية كسبوع زفاف لعروسين وهو اليوم السابع له أو سبوع مولود أو ختان صبي أو قدوم حاج وسلامته في رحلته

كانت تقيم بعض الأسر احتفالا كبيراً لشخص يسمى الشاعر ، وتدعو أهل القرية والقرى المجاورة لسماعه ، ولم يكن شاعرا بالمعنى المعروف ، وإنما كان منشدا لقصة الهلالية ، وهى قصة شعرية مطبوعة فى نحو أربعة أجزاء ، تحكى بشعر عامى قصة خروج بنى هلال العامريين من الجزيرة العربية إلى مصر فى عهد الفاطميين وترحيلهم لحرب أعدائهم فى تونس والمغرب .

وفى القصة بطلان عريان هما أبوزيد الهلالى ودياب بن غانم الزغبى ، ولكل منهما بطولاته ومغامراته الحربية ، وعادة ينشد الشاعر أجزاء من القصة على الرماية ، وهى آلة موسيقية ثنائية الوتر كثيرة الثقوب ، والشاعر يحرك عليها قوسا فى أثناء نشيده ، ليستعين فى إلقاء القصة أو بعض أجزاءها .

وكانت هذه القصة تُشَدُّ وتتردد منذ عهد الفاطميين فى القرى المصرية لصرف المصريين عن التفكير فى الشؤون السياسية . ومنذ هذا التاريخ البعيد أى منذ نحو تسعمائة عام كان بعض القرى المصرية يشايخ أبازيد بطل بنى هلال ، وبعضها يشايخ دياب بن غانم بطل بنى زغبة ، أو بعبارة أخرى كان بعضها هلالية وبعضها زغبية .

ولم تكن توجد فى مصر قريتان متجاورتان وهما هلاليتان أو زغبيتان بل دائما توجد قرية هلالية ويحوارها قرية زغبية أو العكس . وكان ذلك كان تعبيرا عما كان بين القرى المتجاورة من تنافس . وكان الشاعر يلاحظ ذلك ، فإذا كانت القرية التى دعت لإحياء احتفال بها هلالية أعلى ورفع من شأن أبى زيد وبطلته ، وإذا كانت زغبية أعلى ورفع من شأن دياب بن غانم وشجاعته . وكانت له طريقة خاصة فى إلقاء أناشيد القصة ، فحين يهجم البطل الخاص بالقرية تحس كأن الشاعر نفسه هو الذى يهجم بربابته أو قوسه ويسهام أناشيده . فهو منشد وممثل معا ، ومن هنا كانت تشد حماسة الصى ورفاقه والنظارة جميعهم .

وكان يحدث كثيرا حين يكون الشاعر في قرية هلالية مثلا ويهبط بدياب بن غانم درجة أو درجتين أو درجات عن بطولة أبي زيد أن يثور المدعوون من أهل القرية الزغبية المجاورة . وكانت قرية الصبي هلالية وكان مثل صبية قرينه وأهلها هلاليا . ودفعه ذلك وهو في سن صغيرة إلى أن يقرأ قصة الهلالية ويشغل نفسه بالجديث عن بطولات أبي زيد لرفاقه من الصبية إذ كان يشعر بانتماء قوى إليه وإلى الهلالية .

وغريب أمر الإنسان حتى في صباه ، فهو دائما يحاول الانتماء إلى أى وطن أو أى شيء ، وإن في انتماء القرى المصرية لبطل قصة الهلالية العربية : أبي زيد ودياب بن غانم ما يشير بوضوح إلى شعور المصريين الدائم المستقر في أعماقهم بانتمائهم إلى العرب والعروبة ، وليس بصحيح ما يظنه بعض المعاصرين من أن شعورهم بهذا الانتماء حديث فهو قديم منذ مئات السنين . وقد ظلت القرى المصرية تحس بقوة هذا الانتماء العربي إلى الهلاليين والزغبين ، حتى تكونت عندنا الأحزاب المصرية منذ أوائل القرن الحاضر ، واحتدم هذا الانتماء الحزبي الجديد مع نشوء حزبي الوفد والأحرار الدستوريين ، ثم مع ما جدَّ بعدها من أحزاب . ولم تكن بطولات أبي زيد الهلالي وحدها هي التي يتنظر رفاق الصبي منه أن يحكيها لهم ، فقد كانوا يتظنون منه أيضا أن يقص عليهم آخر الأخبار في الحرب العالمية الأولى لهذا القرن ، وكان قد أخذ يستطيع قراءة الصحف ، وكان أبوه يحضر معه في أكثر عوداته من دمياط إحداها ، فكان الصبي يقرأها ويروي لِدلائمه ما فيها من أخبار الحرب . وذاع ذلك عنه في القرية حتى كان الفلاحون يتعرضون له بالسؤال عن أخبارها ، وأيضا كانت صديقات أخته الكبرى ينادين عليه وهو مار بدورهن أو يستوقفنه ويسألنه عن الحرب وآخر أخبارها . وكان مثل كل القرية بل مثل كل المصريين حيثئذ هواه مع تركيا وألمانيا ، وأخذ يشعر بغير قليل من البؤس

حين بدا في الأفق أن الحلفاء هم الذين سينتصرون وأن كفتهم هي الراجحة . وكما كان يستروح الصبي الحديث واللعب مع لداته في المدرسة والقرية كان يستروح الجلوس والحديث إلى كثيرين من المتقدمين في السن ، وخاصة الشيوخ من أهله رجالا ونساء ، لما يجرى على ألسنتهم أحيانا من حكم وأقوال عجيبة سديدة ، مع أنهم يعيشون على الفطرة . ويبدو أن هذه المعيشة نفسها هي التي تجعل أقوالهم وحكمهم صحيحة قديمة ، لأنها لا تنبع من أذهان عقدتها الثقافات والقراءات الكثيرة للكتب ، وكأن ذلك من شأنه أن يضع حُجبا وأسدا لا على الأفكار فلا تبدو مكشوفة للبيان بحيث يحيط بها الدهن إحاطة تامة من جميع جوانبها ، إذ كل فكرة تشابك مع أفكار كثيرة حتى لتوشك أحيانا أن تطمسها .

وما أشبه أفكار هؤلاء المسنين الفطريين الذين كان يُكثر الصبي من الاستماع إلى أحاديثهم وما يثون فيها من الحكم بأشجار تنمو في الطبيعة متباعدة ، لكل شجرة تربتها لا تشركها فيها شجرة أخرى ، ولها هواؤها الذي تنفس فيه بملء رئتها ، ولها حفظها الكامل من الشمس وحرارتها وأضوائها . أما أفكار المتمدنين ، وخاصة من أصحاب الثقافة الممتازة ، فأشبه بغابة ملتفة ، تتداخل أشجارها وفروعها وأغصانها حتى ليختفي بعضها عن الأنظار ، فلا تراه أو لا تكاد تراه . وحقاً كان هؤلاء المسنون والشيوخ يعيشون في القرية معيشة ساذجة ، ولكن من الحق أيضاً أنهم كانوا يعيشون بعيون تبصر كل ما حولها في الحياة دون خداع أو نفاق مما يرى على حياة الناس في المدن .

وكان الصبي حين يذهب ظهراً إلى مزرعة جده المجاورة للقرية يرى زوجات بعض الفلاحين العاملين في الأرض قادمات إلى أزواجهن ، يحملن إليهم الغداء ، وهو في أقل الأحيان عدس أو فول ثابت وبصلة أو بصلتان ورغيف أو رغيفان أو أكثر وفي أغلب الأحيان يكون الغموس مِشاً ، ومعه بصل ، وقد يستعيض الزوج

عن البصل بشيء من « السريس » الذى ينبت بكثرة مع البرسيم .
ويقبل أهل الريف جميعا موسرين ومعرسين على العيش ، وهو يعد بخاصة
عند الأمر الرقيقة الحال الطعام الرئيسى للقطور والغداء وهو جبن متروخ الدهن
مخلوط بماء وملح يوضع شهورا فى بلاص أو جرّة ، وأهل القرى يأتمدون به ،
وكان الصبى يحبه ، وكثيرا ما كان يتخذه إداما فى طعامه . وكان يحدث أحيانا
لبعض الفلاحين أن تلتف الديدان وتندو أغسطس المزروع من القطن ،
فلا يستطيع الفلاح أداء إيجار الأرض المضروب للملكها ، فيستدين ، ولا يبق
طعاما له طوال العام سوى المش المالح وبعض ما تنبت أرضه من الجرجير والفجل
وبعض ما يكون فيها من النخل والبلح القليل .

وكانت القرية تقيم من حين إلى حين ليالى للذكر احتفالا بقدوم أحد أصحاب
الطرق الصوفية ممن كانوا يتسبون إلى الشيخ أبى للماعطى فى دمياط أو الشيخ
أبى خليل فى محافظة الشرقية أو غيرها من أصحاب تلك الطرق القريين أو
البعيدى . وفى العادة كان لهذه الطرق فى كل قرية أو فى كثير من القرى تلاميذ أو
مريدون يتزل عليهم صاحب الطريقة الصوفية ليأخذ لها العهود .

وكان يتجمع كثيرون من أهل القرية كبارا وصغارا فى دار المريد أو فى دار
شخص آخر باتفاق المريد معه . وبعد صلاة العشاء يجلس الشيخ ويأخذ الناس فى
السلام عليه وطلب الدعاء منه ، وما يلبثون أن ينهضوا فى صفين متقابلين يمتن
ويسرة وهم يقولون : « حَى حَى » أى الله ، ومنشد ينشد . وتشتد الحماسة
بالذاكرين ، ويشتد الوجد ، ويظلون على هذه الحال ساعات متواليات ، والشيخ
فى أثناء ذلك يأخذ العهود على المريدين الجلد اللين جاءوه ييغون الانتماء إلى
طريقته الصوفية .

وكان الصبى لا يترك احتفالا من هذه الاحتفالات إلا ويحضره للفرجة على

الذاكرين والاستماع للمنشد ، ولم يكن يعي حينئذ أن الاتصال بطريقة صوفية وتحول شخص إلى تلميذ فيها أو مريد لشيخ معناه ضرب من الانتماء الروحي ، وهو انتماء انتشر مع الطرق الصوفية في العالم الإسلامي منذ القرن السادس الهجري ، إذ أخذ شيوخ هذه الطرق ومريدوهم يطوفون البلاد الإسلامية مدربين من يتبعونهم على الالتزام بأوراد معينة ، وهي أدعية طويلة ولكل صاحب طريقة دعاؤه أو ورده الخاص .

ومن المؤكد أن الصوفية أدوا للإسلام خدمات عظيمة بنشره في غربي أفريقيا وأواسطها وشرقيها ، وفي أواسط آسيا وديار المغول ، وفي الهند وما وراء الهند من الملايو وأندونيسيا والفلبين ، غير أن المستعمرين حاربوا رجاله ، وكادوا يفقدونه جُلَّ أهميته الأولى . وكان من أكثر ما يلفت الصبي في حلقات الذكر التي كانت تقام في قريته أن بعض أهلها كانوا يطلبون من الشيخ الصوفي تعويذات وتمايم ، ولاحظ أن أباه كان ينكر ذلك ، ولما سأله قال له : إن التصوف وطرقه الصحيحة براء من هذا كله ، والتصوف السليم إنما هو نسك لله وذكر وعبادة دون اعتقاد في تمايم وتعويذات لا تنفع ولا تشفع .

وبينما كان الصبي يخطو في السنة التاسعة من عمره ترك الأب القرية واتخذ دمياط دار مقام له ، وكانت دمياط عالماً جديداً للصبي بدكاكينها وحوائيتها التي كانت تضاء في المساء بمصابيح الكهرياء ، وكان منظر أضوائها يبهج نفسه بهجة كبيرة . وسكنت أسرة الصبي في دار من بابها لم يسكن معهم فيها أحد ، ولقته فيها مصابيح الكهرياء المدلاة من السقوف كما لقته للماء يتزل من مواسيره صافياً خالياً من أى كُدرة . وكان الصبي ينام في غرفة منفرداً وحده ، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى أخذ يشكو إلى أمه من أنه يصحو ليلاً ، فيجد بجانبه جسماً ممتداً ، ويضع يده فوقه ، فيحس كأنه جسم عارٍ . وتراجع الأم أباه الشيخ ، فيقول لها إنه إما هر وإما هرة . ويعود الصبي إلى النوم بالقرية في الليلة التالية ، ويقرأ قبل أن ينام - كما علمته جدته في القرية - آية الكرسي ست مرات لحفظه وحفظ المترل ، ويدعوى

نهايتها بهذا الدعاء ، أقسمت عليكم يا خدام هذه الآفة : آفة الكرسي بحق الذى خلقكم وصوّرکم أن تحفظون وتحفظوا هذه الدار من الأذى والضرر طوال ليلتى هذه حتى طلوع الشمس . وبنام مطمئنا ، غير أنه لا يلبث أن يستيقظ ويحس بجسد ممتد بجانبه ويبيت مرتاعا فزعا ، ولا يلبث أن يستسلم إلى النوم .

وفى الصباح يعود الصبى إلى الشكوى لأمه ، وتبحث الدار فى المساء غرفة غرفة ، لعلها تعثر على هذا الهر المزعوم ، ولا تجد شيئا . وتذكر ذلك للصبى ، ويعود إلى تلاوة آفة الكرسي ودعائها ، حتى إذا استيقظ ليلا أحس بالجسد ملتصقا به ، ويشكو فى الصباح إلى أمه ، فتنتقل فى الليلة التالية من غرفته إلى غرفة أخرى ، وتنام فى فراشه ، فلا ترى شيئا ، وبالمثل لا يرى الصبى شيئا فى فراشه الجديد .

وتعيد الأم الصبى إلى غرفته بعد أن تأكدت بنفسها من أنه لا توجد بها روح ، ويعود الصبى إليها خائفا ، ويقرأ قبل نومه آفة الكرسي مع دعائها ست مرات ، ويلتف فى اللحاف بحيث لا يبين منه أى شيء ، ويستيقظ فى أثناء الليل ، ويعاوده الشعور بالجسد الملتصق به ، ويخشاه فلا يمد يده عليه ، بل يضعها فوق رأسه حتى الصباح ، فيهرع إلى أبيه مؤكدا له أن الجسد العارى كان يلتصق به طوال الليل .

ويبادر الأب إلى اتخاذ قرار هو ترك الدار واستئجار دار جديدة ، مع اعتقاده أن هذا كله إنما هو وهم من الأوهام ، لا واقع له ولا حقيقة ، إذ كان لا يؤمن بالأوهام ولا بالخرافات . ويفكر الصبى فى ذلك بعد أن شبَّ عن الطوق ، ويقول فى نفسه : ربما كان حقا وهما جاءه من قصص الجن والعفاريت التى كانت تحكيها له جدته ، أو ربما كان هذا الجسد يده التى كان يتوسدها من الخوف ، فإذا استيقظ ومدها بجانبه ، وهى مخدرة ، ولمسها بيده الأخرى وهو بين اليقظة والنوم

ظنها جسداً آخر ممتداً بجواره ولا جسد ولا روح ولا عفريت من الجن ، إنما هي قصص الجان في القرية جعلته - أو جعله الخوف - يظن أن يده المخدرة بجسداً يتام بإزارته . ومن القريب أن هذا الوهم الذي تمكن من خيال الصبي وهو صغير ، وقصة العفريت الذي كان يمثل لماذون القرية هراً في المسجد ، كل ذلك جعله - فيما بعد - يخاف من القطط خوفاً شديداً فلم يأنس يوماً لقط أو هرة .

وكانت أمنية أبيه أن يصبح شيخاً ، وكانا يرددان على سمعه أنها وهباه للعلم ، وكلمة العلم عندهما إنما تعني العلم الديني الذي يحمله في صدورهم شيوخ الأزهر الشريف . ولذلك لم يتردد أبوه في أن يدخله كتاباً يحفظ فيه القرآن الكريم . وكان بدمياط مقرئ معروف بشدته في تحفيظه القرآن للأولاد ، وكان كتابه ملحقاً بجامع يسمى جامع البحر ، كان به المعهد الديني وحلقات دروسه . وأخذ الأب ابنه إلى هذا الكتاب ، ورآه الصبي مفروشا بمحصر ، والصبية يجلسون عليه وفي أيدي بعضهم ألواح يحفظون ما سطروه فيها من الذكر الحكيم ، وفي أيدي البعض الآخر مصاحف يتلونها وهم جميعاً يهتزون ، ورأى المقرئ أو كما كانوا يسمونه « سيدنا » جالسا على حشيرة صغيرة وصبي يسمع عليه محفوظه مهترأ بانتظام . ولما رأى المقرئ أباه وقف للسلام عليه ، فقدم له ابنه وأوصاه به وانصرف .

وأخذ الصبي مكانه بين رفاقه ، وما إن مرت عليه بضعة أيام حتى لاحظ سيدنا سرعة حفظه ، إذ رآه حين يلزمه بحفظ صحيفة أو أكثر من المصحف الشريف يبادر سريعا إلى تسميعها غيباً دون أن يخطئ في حرف منها ، فرأى أن يجعلها له صحيفتين ، وهما يعينان في تقسيات الذكر الحكيم نحو ربيع ، ورأى « سيدنا » أن يبدأ الصبي الحفظ من أول سورة البقرة . وفي كل يوم كان الصبي يحفظ ربعا كاملا .

وكان في الكتاب نحو عشرين حبياً مختلفي الأعمار من التاسعة إلى نحو الخامسة عشرة ، وكلهم يحاولون استظهار القرآن ، وكلهم يخافون من « سيدنا » خوفاً شديداً ، إذ كانت بيده دائماً مقرعة ، وكانت عادته أن يدعو أحد الناشئة لتسميع « اللوح » أو الواجب اليومي ، وأحياناً يدعو لتسميع « الماضي » وهو ما حفظه قبل ذلك . وكان الصبي مثل أقرانه كلما حفظ واجبه تلاه عليه ، وقد يتلو عليه قسماً من « الماضي » وكان يجلس في التسميع - مثلهم - أمام « سيدنا » وقد وضع ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى ، وباطن القدم اليمنى مكشوف ، فإذا أخطأ أو تعرّ لم يقل له « سيدنا » تعرّث أو أخطأت وإنما تنزل للمقرعة تواء على باطن قدمه ، فيتنبه إلى أنه أخطأ .

وكان بلفت الصبي رفيق له تعود إذا قرأ واجبه أو « ماضيه » أن لا يبين أحد ما يقرؤه ، فهو يكره كراً شديداً ، بحيث لا يستطيع أحد أن يعرف بوضوح ما يقرأ ، فضلاً عن أن يتبعه في آية من الآيات . ومع ذلك كان إذا قرأ على « سيدنا » بهذا الكر السريع يهوى بالمقرعة على باطن قدمه من حين إلى آخر ، وكأنه عرف خطأ سقط على لسانه ، وفي واقع الأمر كان يريد أن يخيف رفاقه ، وأنهم إذا قرأوا كراً على غرارهم فلن يفلتوا منه ومن مقرعته ، فأولى لهم أن يقرأوا قراءة متأنية ، حتى يأخذوا الفرصة الكافية لتذكر الكلمات والآيات .

وكان الصبي يرهب « سيدنا » ومقرعته رهبة شديدة ، وكان يوالى يومياً عليه تلاوة الربع الذي استظهره تسميعاً ، وقلماً يخطئ فيه أي خطأ ، وكيف يخطئ وقدمه اليمنى ملقاة على ساقه اليسرى مكشوفة للمقرعة ، وقد تهوى فجأة دون أي تنبيه أو تحذير ، وبالمثل يتلو « ماضيه » على سيدنا قلعاً يزلّ لسانه أو يلحن أي لحن . وكانت العادة في هذا الكتاب أن يتناول كل صبي غذاءه في داره ، ولكن بعد أن يحفظ واجبه اليومي ويسمعه على سيدنا ، فإذا لم يحفظه ولم يسمعه حتى نهاية اليوم

ظل في الكتاب لا يبرحه ، وظل دون غداء وأمعاؤه تتلوى جوعا ومسغبة .
ويوم واحد لا يزال الصبي يذكره إذ أبطأ في حفظ الربع أو الواجب اليومي ،
وكان الربع الثاني من سورة مريم ، ولا يدري الصبي بالضبط السبب في أنه تعذر
عليه أن يحفظ هذا الربع قبل صلاة الظهر كعادته في الأيام السابقة ، فتأخر في
حفظه حتى صلاة العصر ، وبذلك تأخر غداؤه إلى أن انصرف مع رفاقه من
الكتاب ، وكان ذلك كان درسا له ، فلم يعد - بعد - يتأخر أبداً في حفظ
واجبه اليومي ، مما جعله يتم حفظ القرآن جميعه في أقل من عام ، وكان يوم إتمامه
له يوم فرح في داره . احتفل به أبواه وأهدى الأب إلى « سيدنا » بعض الهدايا
المعتادة في مثل هذه المناسبة .

وقد يُظن أن الصبي بكَر في حفظ القرآن الكريم بالقياس إلى رفاقه في كتابات
القرى والمدن ، ولكن من الحق أن الكثرة كانت تحفظه بين سنتها العاشرة مثله
وسنتها الثانية عشرة . وهو لا شك حصيلة كبرى كان ينبغي أن يلتفت إليها القائمون
على التعليم الابتدائي ، لأن الناشئة فيه تتم تعليمها في سنتها الثانية عشرة
وما يحصلونه يبدو شيئا ضئيلا بالقياس إلى ما كان يحصله أندادهم بجبل الصبي في
الكتاتيب المصرية ، مما يظهر بوضوح أننا نهدر في تعليمنا الابتدائي قدرات عقلية
لأبنائنا في سنواتهم المبكرة ، قدرات على التحصيل لا نستغلها بالصورة المأمولة .
ومن المؤكد أن الناشئة في جبل الصبي كانت تتعود - بدأها على حفظ القرآن
الكريم في بواكير حياتها - بذل الجهد الشاق في التحصيل والدراسة . ولعل نبوغ
مفكرينا العظام في القرن الماضي وشطر كبير من القرن الحاضر يرجع إلى ما تعودوه في
الكتاتيب من بذل كل طاقاتهم في استظهار الذكر الحكيم ، وكان هذا البذل والجد
في التحصيل يظل ملازما لهم لا يزايلهم طوال التعليم حتى يتموا تعليمهم الجامعي
أو العالي .

على كل حال استظهر الصبي القرآن الكريم في سن مبكرة ، وكان يتلوه تسميعاً دون أى لحن ، وظل شهوراً متوالية يبحّوّه ، وعلى الرغم من أنه كان في العاشرة من عمره كان يتوقف مراراً متأملاً في معاني بعض الآيات الكريمة ، من ذلك تأمله وتفكيره في آية سورة التغابن : (يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) فقد كان كلما تلا هذه الآية سأل نفسه متعجباً هل تصبح الزوجة مبغضة لزوجها والولد مبغضاً لأبيه ؟ وكان مصدر تعجبه أنه ينظر فيما حوله فيجد أبويه متعاطفين متوادين ، وكانت الأم تصغر الأب بسبع سنوات ، وكانا متآلفين تآلفاً شديداً ، وكان يكنى لها - وتكنى له - الاحترام .

وكان الصبي يتساءل ترى هل هذا الاحترام هو النبع الغزير لما بين أبويه من توادٍ وتعاطف ؟ . . وظل الصبي كلما قرأ آية سورة الروم العظيمة : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) ارتسمت في ذهنه صورة أبويه . وتدور به الأيام ويعرف أن بغض الزوجة لزوجها شذوذ لا يقاس عليه ، وأن من نعمة الله على الأزواج أن ملأ قلوب زوجاتهم لهن بالبر والعطف والمودة والرحمة إلا قليلاً جداً ، فالكثرة الغالبة منهن يكلائنهم ويرعينهم ويعرفن لهم حق الزوجية وأبوتهم لأبنائهم ، وما أعظم الفرق بين زوجة تحب زوجها وتحمل له الودّ والعطف والحنان وزوجة تكره زوجها وتحمل له الموجدة ، وأيضاً ما أعظم الفرق بين زوجة راضية تهب زوجها وأسرته الهناءة والسعادة وزوجة كارهة تهب زوجها وأسرته الشقاء والتعاسة .

ولم يكن الصبي يفهم كيف ينقلب الابن مبغضاً لأبيه ، إذ لم يكن قد قرأ التاريخ وعرف منه أن من الابناء من تأمروا على آبائهم واشتركوا في سفك دمائهم طلباً للحكم والسلطان وعز الرياسة ، وما أبأس الابن حين يتحول مبغضاً لأبيه الذي سقاه من ظناً وأطعمه من جوع ورعاه ورباه . وما أعظم القرآن في وصيته لكل

ابن أن برعى حقوق أبويه حتى أنفاسها الأخيرة على نحو ما تصور ذلك آية سورة الإسراء : (وبالوالدين إحساناً إماً يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفص لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) ، وكان الصي كلما تلا هذه الآية الكريمة أكبر أبويه ، وعرف لهما قدرهما وحققها ، وشعر إزاءهما بإجلال عظيم .

وما هى إلا بضعة شهور حتى أخذ الصي يحسن تجويد القرآن الكريم ومعرفة مخارج الحروف فيه بدقة بين الجهر والهمس واللين والشدة ومعرفة الإدغام فيه والغنائات وقياس المدات . ولم يلبث أبوه أن ألحقه بالمعهد الدينى فى دمياط ، وفاء ببيته للعلم ، وكان العام مكملأ لأعوام الثورة التى أشعلتها مصر ضد الإنجليز الغاشمين منذ سنة ١٩١٨ حين شكّل سعد زغلول فى ١٣ من نوفمبر وفداً برياسته وعضوية عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى لمقابلة « ريتشارد ونجت » ممثل إنجلترا فى مصر نائبين عن شعبهم فى تقديم مطالبه الوطنية . ولم تستجب إنجلترا ولا ممثليها لشيء من هذه المطالب . وكان قد تألف فى نفس اليوم بزعامة سعد حزب الوفد الذى سىظل ثلاثة عقود من السنين الممثل الوحيد المفوض للأمة المصرية .

وحمل سعد أمانة رياسته بقوة ومضى يستثير الشعب ضد عدوه الغاصب الأثيم ، فنفاه الإنجليز مع بعض صحبه إلى مالطة فى مارس سنة ١٩١٩ وغضبت مصر وثارَت جماهيرها فى جميع مدنها رجالا ونساء وشيوخا وشباناً وعمالا وفلاحين ، وعرضوا صدورهم لرصاص الإنجليز غير مباليين ، ومثلوا بكثيرين من الإنجليز وازداد سفك دماثهم ، مما اضطرهم إلى رد حرية سعد إليه وسماحهم له بالسفر مع وفد إلى مؤتمر الصلح فى باريس لعرض قضية مصر عليه ، وهناك أقاموا العراقل ضده ، وصُدم سعد ورفاقه بإعلان المؤتمر فى مايو سنة ١٩١٩ الاعتراف بحماية إنجلترا لمصر ، وكأنما ذهبت جهوده هباء . وظلت إنجلترا فى مناوراتها وتألقت

في مارس سنة ١٩٢١ وزارة برياسة عدلى يكن ، ودعيت مصر لمفاوضة الإنجليز تمهيدا لعقد معاهدة بين الطرفين فأبرق عدلى إلى سعد زغلول رئيس الوفد وكان يباريس يعلمه بالنبا ويدعو الوفد إلى الاشتراك معه في المفاوضات .

وعاد سعد إلى مصر وإلى استئناف الجهاد ، واستقبلت مصر ابنها البار استقبالا يندر أن يظفر به زعيم من زعماء الشعوب ، وأعلن سعد أنه لابد أن تكون أغلبية المفاوضين للإنجليز من الوفد وأن تكون له الرياسة . وأحدث ذلك خلافا خادما بين الوزارة والوفد وانقسم الوفد ، إذ اختلف بعض أعضائه مع سعد ، واستقلوا من الوفد وكان ذلك أول انقسام عنيف فيه . وذهب عدلى فى أول يولية إلى إنجلترا لمفاوضة كيرزون وزير الخارجية الإنجليزية مع نفر من أنصاره وأكثرهم من طبقة الترك الأرستقراطيين ، وبعد مداورات شتى للإنجليز باءت المفاوضات بالإخفاق الذريع .

وكان سعد قد أخذ يلهم حماسه الأمة بخطبه النارية فى شهرى أكتوبر ونوفمبر مطلع أول عام للصبي فى معهده الدينى ، وكان طلاب هذا المعهد كغيرهم من أبناء الأمة يتأججون وطنية ، فلم تكد تنظم الدراسة فيه يوما ، ولم يكن للطلاب من حديث سوى خطب سعد وكمالاته الملتبة ، وخاصة فى يوم عيد الجهاد يوم ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٢١ وكأنما كانت خطبته فيه شواظا من نار صبّه على عدلى يكن ووزارته : وظل المعهد مأجما بالثورة ، وعاد عدلى من لندن فى أوائل ديسمبر ، ونشر سعد فى الأمة نداء يستصرخها فيه على مواصلة الجهاد متخذة شعارها : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

واستشاط الإنجليز حقنا وغضبًا ، ولم يلبثوا أن اعتقلوا سعد زغلول فى ٢٣ من ديسمبر مع سبعة من أعضاء الوفد ونفهوم إلى سيلان ومنها إلى جزر سيشل فى الشمال الشرقى من مدغشقر . ولم يجد عدلى مفرًا من استقالته . حتى لا يتحمل شيئا

من وُزِر هذا النقي لزعيم الأمة وصحبه ، وقُبِلت استقالته ، وبقيت البلاد دون وزارة أكثر من شهرين..

وعاد بركان الأمة الثائرة إلى الاشتعال ، وقامت المظاهرات وعنف في جميع المدن والبلاد وأُضرب طلاب المدارس وطلاب الأزهر والمعاهد الدينية في دمياط وغير دمياط . ولما تفاقمت المظاهرات والإضرابات تقرر إلغاء الدراسة في الأزهر ومعاهده الدينية لهذا العام الدراسي الأول للفتى في المعهد الديني . وفي الحق أنه لم يكن عام دراسة بل كان عام ثورة وكفاح وجهاد .

وتتعاقب الأحداث ويقرر الوفد عدم التعاون مع الإنجليز في جميع المعاملات الفردية ، كما يقرر مقاطعة بنوكهم وشركات تأمينهم وسفنهم وكافة أنواع التجارة معهم . وتصعد مصر للقرارين ، ويضطر الإنجليز إلى إعلان تمريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ معترفين فيه باستقلال مصر ، ولكن مع الاحتفاظ بأربع مسائل ، هي : تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية ، والدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي ، وحماية المصالح الأجنبية في مصر والأقليات ، والسودان . وكأن ما اعترفوا به لمصر من الاستقلال وانتهاء الحماية البريطانية محو بهذه التحفظات . وسرعان ما أُلِّفت وزارة في شهر مارس برياسة عبد الحالق ثروت ، ونودي بالسلطان فؤاد ملكاً لمصر ، وعُيِّنَت الوزارة بوضع الدستور ، وأُلِّفت في شهر أبريل لوضعه لجنة من ثلاثين عضواً ، وأخذت تعقد لذلك اجتماعات كثيرة ، وفي شهر أكتوبر تآلف حزب الأحرار الدستوريين ، وكانت كثرة أعضائه ممن انشقوا على سعد والوفد ، واختير على يكن رئيساً للحزب ، وبذلك بدا جليا انقسام الأمة إلى كتبة وفدية وأقلية دستورية .

وكان الصبي منذ إغلاق معهده الديني يعكف على قراءة الصحف ، متبهما الأخبار السياسية وما قد تذكره الأنباء العالمية عن سعد ورفاقه ، وما يشهده أعضاء

الوفد من أسلحة في مقاومة الإنجليز ، وما يحدث أحيانا من الاعتداء على الإنجليز والفتك بهم . وظل يتبع مبتهجا انتصارات تركيا بقيادة مصطفى كمال على اليونان ، وكانت قد احتلت بإيجاء من الحلفاء أزمير وشطرا كبيرا من الأناضول بعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى في هذا القرن .

وكان الشعب التركي قد تحول في الأناضول إلى عصابات مسلحة تقاوم اليونانيين ، والتحققت بها قوات نظامية ، حتى إذا كانت سنة ١٩٢١ وقاد الجيش التركي مصطفى كمال أخذ يسحق جنودهم سحقا ذريعا في معارك متوالية . وكان الصبي يفرح فرحا شديدا كلما انتصر مصطفى كمال في موقعة ، وكان ما يزال ذاهبا آيبا إلى باعة الصحف ، ليحصل على إحداها أول دخولها دمياط ويتقف على آخر أنباء تلك الحرب . وكانت المعارك فيها قد احتدمت في صيف سنة ١٩٢٢ .

وما زال مصطفى كمال يذيق اليونانيين وبال عدوانهم الأثيم حتى استولى منهم في شهر سبتمبر على أزمير ، وفرت فلولهم مدحورة إلى ديارهم ، وكان نصرا عظيما لتركيا وبطلها مصطفى كمال ، وهو نصر ظل المصريون يتلقون أنباءه بابتهاج ما بعده ابتهاج كان الصبي يراه مجسدا في العناوين الكبرى على واجهات الصحف وفي تعليقات المحررين وإشاداتهم بانتصارات الترك الساحقة ، لا لأن تركيا ظلت منذ تحولت إليها الخلافة مركزا روحيا للإسلام فحسب ، بل ربما كان أهم من ذلك في نظر المصريين حينئذ أن انتصار الترك في واقعه كان انتصارا حاسما على قوى الاستعمار البغيض الذي ينبغي أن تُدَقَّ أعناقُه في كل مكان .

وكانت دول الاستعمار - وخاصة إنجلترا الموعزة لليونان باحتلال الأناضول - تنظر إلى هذه الانتصارات وضرباتها القاصمة لليونانيين بقلق ، لم يلبث أن تحول إلى جزع عميق ، فتلک تركيا الدولة المسلمة المهزومة في الحرب العالمية حينئذ والتي

مزقوها في مؤتمر الصلح إربا - وبلغ من استهانتهم بها أن منحوا اليونان أزمير وشطرًا كبيرًا من الأناضول - تعود سريعًا إلى الظهور في ميادين الحرب ببسالتها القديمة ، وتفتك بجنود اليونان فتكا لا يكاد يبق منهم ولا يذر .



وكان الصبي قد عاد مع العام الدراسي الجديد إلى استئناف الدراسة في السنة الأولى بالمعهد الديني ، واشترى ما يلزمه من الكتب الدراسية ، ومن بينها متن الأجرومية في النحو ، وفوجئ في أول درس حضره عند الشيخ الذي كان يدرس له ولزملائه هذا المتن ببدائه باسمه ، وكان أبوه صديقا له ، وكان قد أوصاه به . ووقف الصبي فقال له : قل ورائي : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » وهي أول عبارة في متن الأجرومية ، ومعروف في النحو أن الكلمة ثلاثة أنواع : اسم وفعل وحرف ، وأن الكلام هو الجمل والعبارات المفيدة المنطوقة نطقا عربيا سليما ، ولكن الشيخ لم يطلب منه أن يحاول فهم عبارة الأجرومية ، فقد عاد يقول له : قل ورائي : « الكلام مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة » و « هو » ضمير فصل على الأصح مبني على الفتح لا محل له من الإعراب » و « اللفظ » خبر

المبتدأ مرفوع بالضممة الظاهرة « و » المركب « نعت لكلمة اللفظ مرفوع بالضممة الظاهرة « و » المفيد « نعت ثان لكلمة اللفظ مرفوع بالضممة الظاهرة و » بالوضع « الباء حرف جر وكلمة الوضع مجرورة بالباء وعلامة جرهما الكسرة الظاهرة ». وهذا الإعراب يشتمل من أبواب النحو - التي سيعنى من الأجرومية بعرضها والشيخ بشرحها - على أبواب المبتدأ والخبر والنعت والجار والمجرور .

ولو أن أستاذا من أساتذة التربية الحديثة وقف على هذه الطريقة في تعليم النحو لأنكرها أشد الإنكار ، وقال إنها طريقة مخطئة كل الخطأ ، ومن شأنها أن تقيم حجابا بينها وبين التلاميذ والطلاب فلا يفهموا النحو أبدا ويظلوا طوال حياتهم يتعثرون فيه شاعرين أنه شيء معقد وأنه أكثر عقداً من ذنب الضب فكيف يتعاملون معه ؟ وكيف يستقر في نفوسهم ؟ وكيف يتبأ لهم أن يفهموه يوماً أو يعرفوه ؟ .

وهي طريقة ترفضها التربية أو البيداغوجيا الحديثة رفضاً باتاً إذ لا بد أن يؤخذ التلاميذ بالتعليم الابتدائي في دروس النحو بالوقوف أولاً على الكلمة هل هي اسم أو فعل أو حرف ، وتُعطى للناشئة صيغ وعبارات ، ولكن لا يُعربون منها شيئاً ، بل يظلون يترودون بأناشيد وبعبارات بسيطة ، مكثفين بقراءتها في الستين الأوليين من التعليم الابتدائي أو في السنوات الثلاث الأولى دون أن يُطلب منهم معرفة أي باب من أبواب النحو ، فحسبهم أن تتعود آذانهم النطق السديد ، ثم بعد ذلك تُعرض عليهم في سنة تالية جمل وصيغ قصيرة تتكون من مبتدأ وخبر ، ولا بأس أن يُضمَّ إليهما النعت ، ولكن ليق الجار والمجرور والمفعولات إلى سنوات تالية . ومن أغرب الأشياء أن هذه الطريقة التربوية السليمة لم تنجح حتى الآن في تمثيل تلاميذ المدارس للنحو ، بل إنهم يخرجون من التعليم الثانوي بعد سنوات طويلة يترودون فيها بالنحو على الطريقة التربوية الحديثة ولا يحسنونه ، حتى ليصبح

ذلك مشكلة المشاكل وحتى لتعتقد له المؤتمرات لعلها تجد حلاً للمشكلة. وتوضع بعض الحلول والمقترحات وتطبق وتظل المشكلة قائمة . بينما يذكر الصبي أنه حين تعلم النحو على شيخه السالف في الأجرومية هذا التعليم الذي لا يستخدم أى وسيلة من وسائل التربية الحديثة لم يدرّ به العام الأول في المعهد الدينى حتى كان قد عرف النحو العربى معرفة واضحة ، بحيث لم يصف إليها فى المستقبل إلا تفاصيل فى هذا الباب أو ذاك من أبواب النحو ، أما الهيكل العام للقواعد النحوية فقد تمثله تمثلاً حسناً على يد هذا الشيخ فى متن الأجرومية الصغير الذى لا يتجاوز ثلاثين صحيفة صغيرة . وكان أبوه يعرض عليه من حين إلى حين بعض أبيات من الشعر ، ويطلب إليه إعرابها ، فيعربها دون توقف أو تردد أو خطأ .

وهو شئ يعزّ على الفهم والتفسير أن تحقق الطرق التربوية الحديثة فى تعليم النحو بحيث يستوعبه التلاميذ . ويمثلونه ، بينما تنجح طريقة الأسلاف فى تعليمه بواسطة متونه ومختصراته وهى تخلو من كل هذه الطرق ، ومع ذلك كانت تمثله الناشئة الأزهرية ولا تجد فيه عسراً ولا مشقة . وكأنما عقود المتراسة المتناسقة فى هذه المتون نقضتها أو نثرتها الطرق التربوية الحديثة ، فسقطت بعض حباتها أو ضلّت مكانها أو بُدّل موضعها ، فضاع من التلاميذ فى المدارس سياق النحو ونسقه القديم ، وأصبح من المتعذر عليهم أن يتقنوه فيها وعلماً . وكانت الحركة الوطنية لا تزال ناشطة ، فإن سعد زغلول كان لا يزال فى المنفى ، وكان الإنجليز قد نقلوه فى أغسطس إلى جبل طارق واستقالت وزارة عبد الخالق ثروت فى نوفمبر وألّف الوزارة بعده محمد توفيق نسيم . وكانت وزارته رجعية ، ومن أسوأ ما صنعه حذفه لنصوص السودان من الدستور . وبذلك تنازلت مصر عن حقها فى أن يلقب ملكها بلقب ملك السودان واستقال فى فبراير

سنة ١٩٢٣ فآلف الوزارة بعده يحيى إبراهيم فى متصف مارس وصدر الدستور فى أبريل وقد حذفت منه النصوص الخاصة بالسودان ، وصدر معه قانون الانتخابات لقيام برلمان مصرى .

والبلاذ فى كل ذلك تغلى واغتيالات الإنجليز تتكاثر ، ومصر والمدارس والأزهر والمعهد الدينى بدمياط ، كل ذلك يهوج بالمظاهرات ويضطر الإنجليز إلى رد حرية سعد زغلول إليه فى آخر مارس ، وبالمثل رُدَّت الحرية إلى من نُفوا معه إلى جزر سيشل وإلى كثير من المعتقلين السياسيين فى مصر . وتكون لذلك رنة فرح عظيمة عند الصبى ورفاقه فى المعهد الدينى ويخرجون متظاهرين هاتفين بحياة سعد . ويبدأ الصبى عاما جديداً فى الدراسة وكان أهم حدث سياسى فى مطلع عوده سعد زغلول إلى وطنه فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ وكانت عودته عبداً للشعب فى كل مدينة وفى كل بلد ، وكثرت الاحتفالات وكثرت المظاهرات الهائفة باسمه ، وكأنما كانت مبيعات كبيرة من الشعب وأبنائه لزعامته وقيادته الباسلة للحركة الوطنية . وكان الصبى قد انتقل فى المعهد الدينى إلى السنة الثانية ، وكان الكتاب المقرر فى النحو أكثر تفصيلا من متن الأجرومية وهو متن الأزهرية . وأخذ الشيخ يشرح الكتاب للصبى ورفاقه ، وأبتداً بإعراب : (بسم الله الرحمن الرحيم) التى يفتح بها الكتاب ومعروف أن كلمتى الرحمن الرحيم ، صفتان أو نعتان للفظ الجلالة وأنها مثل منوعتهما أو موصوفهما مجرورتان . ولكن من حق المتكلم إذا لفظ بنعت أن يقطعه عما قبله ويستأنف ، وحيث أن يرفع النعت على أنه خبر لمبتداً محذوف تقديره فى الآية الكريمة « هو » وإما أن ينصبه على أنه مفعول به لفعل محذوف تقديره « أقصد » وشرح الشيخ هذا الإعراب للنعت ، ثم قال إن النعت الأول بذلك يكون من حقلك إما أن تجرّه فتقول « الرحمن » بالجر ، وإما أن ترفعه أو تنصبه . وفى حالة الجر لهذا النعت الأول لك أو من حقلك أن تتبع له النعت التالى

وهو لفظ «الرحيم» أو ترفعه أو تنصبه ، ولك مع الرفع والنصب حالتان مثلهما . ولم تكن هناك حاجة لهذه الصورة المعقدة في إعراب البسملة ، وكان يمكن أن يعربها الشيخ الإعراب الظاهر الذى يتمشى مع نطق الآية في القرآن الكريم ومع نطق الخطباء وأئمة المساجد ، فتكون كلمتا «الرحمن الرحيم» مجرورتين نعتين للفظ الجلالة . ولكن من الغريب أن إعراب الشيخ للبسملة على هذا النمط المعقد بعض الشيء بُتت في عقل الصبي فكرة القطع والاستثاف للنعت ولم تعد تبرح ذاكرته أو تضع منها أبداً .

ويُجمع التربويون المعاصرون على أن هذه الطريقة لتعليم النحو عقيمة ، وهى فى الحَق لم تعَلم أبداً بدليل أن من كانوا يتعلمون بها كانوا يحسّون فهم النحو وقواعده ، ويتعمقون فيه تأويلاً وتحليلاً ، مما لا يستطيعه بحال من يتعلمون النحو بالطرق التربوية الحديثة . وقد يكون ظاهر الطريقة الأزهرية العتيقة يوحي بأنها عقيمة ، بينما هى قائمة على أسس تعليمية موروثة تخالف أسس التربية الحديثة التى توزع أبواب النحو على سنوات التعليم . وبذلك تبعثت قواعده ، ولم تستقم صورتها في أذهان الناشئة في حين أن الطريقة الأزهرية التى تعلّم الصبي على أسسها كانت تعرضه دائماً عرضاً كلياً ، فالطلاب يلمون كل سنة بهيكله ، وهو هيكَل يُعرض في أول سنة عرضاً موجزاً في الأجرومية . ويتسع المَن قليلاً في السنة الثانية فيدرسون من الأزهرية ثم يتسع أكثر في السنة الثالثة فيدرسون من القَطَر ، وفي السنة الرابعة يدرسون من الألفية . وبذلك تتكرر عليهم صورة النحو ، أو قل يتكرر هيكله ، ويرونه جميعه دائماً دفعة واحدة غير مقطعة الأوصال فيستقر في أذهان الطلاب ، ويرسخ رسوخ الصخر .

وكان بدمياط مواسم يرح فيها الصبي غاية المرح . لعل من أهمها الأعياد ، وكانت تقام لها ألعاب في حارة تسمى حارة العيد ، وكان الصبية يؤمنونها ليتفرجوا

على ما فيها من أراجيح شتى ومن فرسان خشية معلقة بحبال متينة إلى رأس عمود يركبها الصبية وتدور بهم مبتهجين ، غير ما كان هناك من صنوف للحلوى يشتريها الصبية ، وهم يلعبون ويتصايحون .

وكان من أكبر المواسم مولد سيدنى أبى المعاطى ، وهو شيخ مغربى صالح نزل دمياط منذ قرون واستقر بها . ولأجل دمياط فيه اعتقاد جعلهم يعنون بضرعته ويرفعون فوقه قبة كبيرة ، وتبعهم أبناؤهم وأحفادهم يزورونه ويعقدون له سنويا مولداً كبيراً فى ساحة واسعة . وعادة تكون الليلة الكبيرة لهذا المولد ليلة الخامس عشر من شهر شعبان ، ويقام له موكب ضخم يسير فيه أصحاب الطرق الصوفية ، وكل طريقة من تلك الطرق يتميز أهلها من سواهم بألوان عمامتهم وبيارقهم . ولكل طريقة « سرادق » تُصَفَّ فيه كراسى ومقاعد على جوانبه ، وفى الليل يضاء بالأنوار الكهربائية ، وتقام فيه حلقة ذكر يتقابل فيها صفان من الشيوخ والشباب يتمايلان يمينا وشمالا ذاكرين الله ذكراً كثيراً بينما يقوم بين الصنفين منشد يث فى الذاكرين بنشيدته حماسية قوية . ويقبل على شيخ الطريقة حينئذ مريدوه ، ومن يريدون الانضمام إلى طريقته يأخذ العهود عليهم والمواثيق .

وتتحول ساحة هذا المولد طوال أيام انعقاده إلى سوق كبيرة ، يقيم فيها التجار دكاكين تزخر بقفف مليئة بالحمص وحَبِّ العزيز والخروب والتمر . ويجارهم أصحاب الحلوى والشراب من كل صنف . ولا ينسى الصبى أبداً يوم الرؤية للال رمضان فى التاسع والعشرين من شعبان ، إذ كانت تستحيل شوارع دمياط إلى ما يشبه كرنفالاً ضخماً ، وهو كرنفال حافل كانت تسير فيه عربات نقل كبيرة مكشوفة ومزدانة بسعف النخل وبعض الأغصان والأزهار وبعض الأعلام والرايات . وتتعاقب هذه العربات وعليها صناع من كل لون يزاولون صناعاتهم من حدادة ونجارة ونحاسة وحياكة ودباغة وجزارة وصنع أحذية ونسيج لقطن

أو حرير . وباعة الفول المدمس والحلوى والحلاطون وكل من له صنعة بدمياط تراهم مكبين على صناعاتهم فوق تلك العربات ، فعربة الحدادة مثلاً عليها صى ينفخ فى الكبر ، والفحم متقد ، وصى يلاحظه ، والحداد يضرب بمطرقة من فولاذ على سندان مسوياً أعمدة رفيعة محماة من حديد . وعربة النساج عليها النول وخيوط وأقمشة مختلفة ، وهو يشد السدى إلى اللحنة . والنجار فى يده عدده ، والنجارون أنواع ، وكل نجار قائم على صناعته ، والحلوى بالمثل أنواع وأصحابها متعددون وأمامهم صنوفها وصينياتها . وكذلك صناعات الأحذية ومن يشتغلون بالحياكة . والحلاق بين يديه زيون أمامه مرآة كبيرة وقد غمر ذقنه بالصابون والموسى فى يده وهو يشحذه على شريط معلق من المجلد . كرنفال رائع لا يبرح ذاكرة الصى لا هو ولا ما كان يَدْخله على نفسه من متعة .

وأخذ الصى منذ انتظامه فى المعهد الدينى يشغف بقراءة الصحف ، لقد كان يشغف بها فى القرية حين كان أبوه يحملها معه من دمياط فيرى فيها أخبار الحرب العالمية الأولى ويروىها للداته ، وقد أصبح الآن أشد شغفاً بها لا لما تحمل فقط من أخبار الحركة الوطنية وسعد زغلول زعيم البلاد ونفى الإنجليز له تارة إلى مالطة وتارة إلى جزر سيشل وجبل طارق وهو يزداد عتواً وصلابة ما بعدها صلابة ، وأيضاً لا لما تحمله من انتصارات الترك الملاحقة لجنود اليونان محققاً ويلاً ، بل كذلك لما كانت تحمل من فصول أدبية طويلة وخاصة صحف الوفد والأحرار الدستوريين ، إذ عنى كل من الحزبين بأن يستكتب فى صحفه بعض الأدباء ليجذب الشباب والقراء ويستميلهم إليه .

وأتاحت هذه الفصول للصى فى سن مبكرة أن يتصل بالحياة الأدبية فى مصر ، وكانت تملك عليه لُبّه كتاباتُ العقاد فى صحيفة البلاغ الوفدية وكتابات محمد حسين هيكل وطه حسين فى صحيفة السياسة الدستورية . وكان طه حسين

يعنى فيها بالكتابة الأدبية الخالصة ، واختار لكتابته وقصوله الأدبية يومين : يوم الأحد لتلخيص قصة من قصص الأدب الفرنسى ، ويوم الأربعاء لكتابة موضوع يتصل بالشعر العربى ، وكان الصى يتابع مقالاته عن تطور الشعر فى العصر العباسى الأول ، وكان قد تحدث فيها عن «أبى نواس ومجونه» وذهب إلى أن عصره كان عصر مجون وزندقة ، مما جعل كثيرين يثورون ثورة عنيفة ضده ، لما تجر مقالاته من إفساد فى رأيهم لأخلاق الشباب إذ يتخذ من أبى نواس وغيره من شعراء المجون مقياسا للعصر العباسى الأول ، مُعرضاً عما كان فيه من الزهد والزهاد ومن العلماء والفقهاء والمحدثين والنسك .

وتتحول المعركة من أبى نواس إلى التاريخ الإسلامى جميعه وهل تضى عليه أسدال من الجلال تحول بين عقول المعاصرين وبين النظر العلمى الصحيح فيه ؟ ويذهب طه حسين إلى أن الأحكام التاريخية أحكام إضافية وليست أحكاما مقدسة ، ومن الممكن أن يظهر النقد العلمى خطأها .

ولا يلبث مصطفى صادق الرافعى أن يرسل إلى صحيفة السياسة رسالة عتاب كتب بها إلى ظريف من أدباء الشام ، وكان يترع فى أدبه مترعا محافظا ، وقد كتبها فى لغة مسجوعة محملة بزخارف المحسنات البديعية ، وكأنما أراد أن يلقى بها فى معسكر المجددين ، ليرى مبلغ تأثيرها ، وكانت قبلة أحدثت دويا هائلا ، وتصدى لها طه حسين يحاول أن يبطل تأثيرها ، فقال إن أسلوب الرسالة ربما راق القدماء ، ولكنه لا يروقنا الآن لتغير الذوق الأدبى فى مصر تغيرا تاما ، فقد أصبح الأدباء المصريون لا يعجبون بالأسلوب المسجع المنمق ، إنما يؤمنون بالأسلوب الحر الطليق من كل قيد الذى يلائم العصر والحياة الواقعة .

وظل صادق الرافعى حاملا لواء المحافظين واقفا فى صف مقابل للكتاب الثلاثة المجددين : طه حسين والعقاد وهيكىل . وذات يوم رأى الصى للرافعى كتابه

« حديث القمر » فاقتناه ووجده فصولا في الحب والجمال والطبيعة ، وأقبل عليه بقرؤه معجبا بجمال تصويره وبأحداثه العاطفية في الحب ، غير أنه كثيرا ما كان يتوقف في القراءة لما يتشرف في الكتاب من إبهام وغموض ، وعرف فيما بعد أن صممه المبكر هو الذي أداه إلى ذلك ، إذ جعله يتحدث إلى الناس ولا يسمعه ، وكأنه في كتاباته إنما يتحدث نفسه ، فكثير منها إنما هو منولوج داخلي .

وكان الصبي يعجب بهيكل لأسلوبه الشفاف وكذلك بالعقاد لقوة منطقته ووضوحه . وكان طه حسين أكثر منها قريبا إلى نفسه ، ربما لأنه بدأ حياته أزهرية مثله ، ولما يمتاز به أسلوبه من سهولة ويسر ونصاعة . وكان هؤلاء الأربعة كثيرا ما يتحاورون في بعض المسائل الأدبية حواراً طويلاً فيحتل بعض حوارهم أو بعض مقالاتهم صفحة في الصحيفة اليومية السيارة .

وكانت الصحف الوفدية ماتزال - منذ عودة سعد زغلول إلى الوطن - تحمل على وزارة يحيى إبراهيم حملات عنيفة ، بينما مضى يعدُّ العدة لانتخابات البرلمان ، ووزع القطر المصري إلى ٢١٤ دائرة لمجلس النواب وإلى ٧١ دائرة لمجلس الشيوخ وأعضائه المنتخبين ، واهتم الشعب بالانتخاب وتألفت له لجان شعبية في المدن والقرى ، وتمت انتخابات النواب في يناير سنة ١٩٢٤ وفاز الوفد بمائة وخمسة وتسعين مقعداً ، وكان فوزاً جارفاً إذ لم يفز من الأحرار الدستوريين سوى ستة ، وكذلك لم يفز من الحزب الوطني سوى ثلاثة . وسقط في الانتخابات أكثر خصوم سعد ، وسقط رئيس الوزارة يحيى إبراهيم في دائرة منيا القمح أمام مرشح الوفد . وكان أبو الصى وفدياً ، وكانت لذلك فرحة كبيرة عند الصى وأبيه وعند الشعب جميعه .

وكان طبيعياً أن يتولى سعد زغلول الوزارة كما يحتم ذلك الحكم الديمقراطي نزولاً على إرادة الأمة ، وفعلوا استقال يحيى إبراهيم عقب ظهور نتائج

الانتخابات ، وآلف الوزارة سعد زغلول ، وأجريت الانتخابات لمجلس الشيوخ في أواخر فبراير ، وفيها علت كفة المرشحين الوفديين علواً كبيراً ، وفي ١٥ من مارس افتتح أول برلمان مصري .

وكان مصطفى كمال قد عمل على تحويل تركيا إلى دولة حديثة ، وصدعت لرغبته الجمعية الوطنية الكبرى فأعلنت قيام الجمهورية التركية وانتخبته رئيساً لها ، وتحول بعاصمة البلاد من إستانبول إلى أنقرة .

وفي الثالث من شهر مارس قبل افتتاح البرلمان المصري اتخذت الجمعية الوطنية التركية قراراً بإلغاء الخلافة استجابة لرغبة مصطفى كمال في أن يسير بتركيا في طريق الحضارة الغربية وأن يصبغ الدولة بصبغة مدنية خالصة . وأحدث ذلك استياء في العالم الإسلامي كان له أصدأؤه في الصحف المصرية ، فكثرت الحديث عن الخلافة وعواقب إلغائها ، ودعا كثيرون إلى العمل على قيامها ، ولم يترأ في الأفق أى أمل في نجاح هذه الدعوة ، إذ كانت البلاد الإسلامية ترزح جميعاً تحت نير الاستعمار الأوربي البغيض .

وكان الصبي قد انتقل في المعهد الديني إلى السنة الثالثة وبدأ عاما دراسيا جديداً . وكان كلما صوب سؤالاً إلى أحد شيوخه بدأ إجاباته بقوله له : يا فتى ، وكان قريباً إلى نفوس الشيوخ جميعاً وعرض عليه شيخ النحو والصرف أن يقرأ معه الدرس ليلاً قبل أن يلقيه عليه وعلى رفاقه صباحاً لضعف كان في بصره ، فكان يقرأ مع شيخه الدرس في المساء في نحو ساعة أو تزيد قليلاً . وكان يطلب إليه أحياناً أن يقرأ ما يقوله الشارح في بعض المواضع تعليقاً على متن الكتاب وكان كتاب القطر واسمه الكامل « قَطْرُ النَّدَى وَبَلُّ الصَّدَا » وقطر الندى : حياة الزهر في الصباح ، والصدى : العطش .

وفكر الفتى حينئذ في أن يكتب ملخصاً لمتن القطر الذي كان يقرؤه مع شيخه

جامعا بينه وبين شرحه ، ولم يكد العام الدراسي يوشك على الانتهاء حتى كان قد أتم تأليف هذا الملخص ، وبذلك كان أول كتاب ألفه الفقى فى النحو . وقد يكون فى ذلك ما يشير إلى ما سينشط له الفقى - فيما بعد - من التأليف والتصنيف . وتصادف أن رأى فى هذا العام الدراسي يوماً لابن هشام مؤلف كتاب القطر كتاباً فى بعض المكاتب ، يتناول النحو ومسائله فى جزء ينسمى «كتاب مغنى اللبيب عن كتب الأعراب» فاقتناه وأعجب بطريقة ابن هشام فى صوغه وتأليفه ، إذ يعرض فى نحو جزء منه الأدوات الكثيرة فى العربية من الحروف والأسماء ويبين وظائفها المتعددة ، فثلاً «ما» يذكر ابن هشام فى درسه لها أنها تأتى اسماً ، وحيث قد تكون موصوفة أو موصولة أو تعجبيه أو استفهامية أو شرطية ، وتأتى حرفاً وحيث قد تكون نافية أو مصدرية أو زائدة .

وهكذا ما يزال ابن هشام يصور فى الجزء الأول أو المجلد الأول من كتابه «المغنى» الوظائف المختلفة للأدوات الاسمية والحرفية فى اللغة . وفى الجزء أو المجلد الثانى ييسط القول فى الجملة وأقسامها وأحكامها وتطبيقاتها . وهو عرض للنحو بطريقة جديدة غير مألوفة فى كتبه ، وربما كان هذا الكتاب هو الذى ألقى فى وعى الفقى مبكراً حاجة كتاب النحو الخاص بالناشئة إلى التيسير والتبسيط مما جعله فيما بعد ينشط للوفاء بهذه الحاجة .

ولم يكن الفقى فى هذا العام الدراسي يعكف على كتب النحو وحدها ، بل كان يعكف أيضاً على كتب الفقه الشافعى ومتونه وشروحه وشروح الشروح المسماة بالخواشى ، وبالمثل كان يصنع رفاقه . وكان أكثرهم محاوره وأسئلة لشيخه ، وكان يعجب رفاقه منه ذلك ، وكانت تجرى على ألسنتهم أسماء أئمة الفقه الشافعى السابقين ممن يتردد ذكرهم فى الشروح والخواشى مثل النووى والرافعى والرملى والعز ابن عبد السلام . وتصادف أن كان والد الفقى يسمى عبد السلام ، فأطلق رفاقه

عليه اسم هذا الإمام ، فكانوا ينادونه إما باسم العز وإما باسم ابن عبد السلام . ولم يكن الفتى قد عرف موقف هذا الإمام المعروف من الظاهر بيبرس الذى مزق حموع التار فى عين جالوت بفلسطين شرمزق ، وكسب لنفسه ولمصر مجداً حريباً رائعاً ، فإنه أراد أن يأخذ لنفسه بعد هذا النصر المبين البيعة بالسلطنة على مصر ، وبينما كان يبایعه الأمراء والقضاة وعلماء الدين تصدّى له العز بن عبد السلام قائلاً فى وجهه : إن بيعتك لا تصح ، لأنك لست حراً ، والحرية أساس فى الولاية على الناس ، وأنت مملوك للبندقدار . وحينئذ استحضر بيبرس شهوداً ، شهدوا له أن البندقدار أعتقه وحرّره . فبايعه العز . وظل معاصروه والأجيال التالية يعجبون به لهذا الموقف العظيم وأنه لم يكن يخشى فى إعلان الحق أحداً منها تكن قوته وسلطانه .

وكانت بمصر فى العقد الثالث من القرن الحاضر محاكم تسمى محاكم الخط ، كانت تؤلف من بعض الشيوخ فى القرى أو بعض ذوى الوجاهة فيها للفصل فى الخصومات الصغرى بين القرويين ، لأنهم أكثر دراية بشئونهم وبما ينشأ أحياناً بينهم من خصومات على الرى وغيره مما يتصل بحياتهم . وكان أبوه عضواً فى محكمة خط دمياط ، فكان يذهب أحياناً للفرجة على هذه المحكمة ، وهى تحقق فى القضايا وتناقش الشهود ، مبتغية الوصول إلى الأحكام العادلة المنصفة . وربما كان لذلك بعض التأثير فى الفتى فيما بعد ، إذ أحب الإنصاف فى أحكامه على الأدباء وآثره دون تحييف لهم أو تنقص .

وكانت مصر حينئذ تعقد الآمال على زعيمها سعد زغلول أن يحقق لها - وهو رئيس وزارتها - أمانها القومية ويسترد لها من الإنجليز الباغين حريتها كاملة وحقوقها السياسية فى السودان ، وتصادف أن كانت تتولى الحكم فى إنجلترا وزارة لحزب العمال هناك برياسة ماكلونالد ، وكان قد أبرق إلى سعد يهته بافتتاح البرلمان

ويبدى استعداداه واستعداد حكومته للمفاوضة معه . وبينما سعد يتأهب للذهاب إلى إنجلترا ، لعله يحقق لبلاده ما تمنى ، إذا شاب يطلق عليه الرصاص في ١٢ من يولية . فأصابه في ساعده الأيمن إصابة خفيفة ، وتبين أن به مساً من جنون ، فأدخل في مستشفى الأمراض العقلية .

ومضى سعد يستعد للسفر إلى لندن ، ومصر جميعها حانية عليه عاطفة ، آملة أن يحقق لها جميع مطالبها ، فترفع إنجلترا يدها عن حماية قناة السويس وعن السودان ، ويتم لها استقلالها . ودارت هذه المعاني في صدر شاعر مصر شوق ، كما كانت تدور في نفس سعد ، فيحيه قبيل إبحاره من الإسكندرية بقصيدة رائعة نشرها بصحيفة الأهرام في ٢٤ من يولية سنة ١٩٢٤ وفيها يهتف :

وياسعدُ أنت أمينُ البلادِ قد امتلأتُ منك أيمانها
ولن ترتضى أن تُقدَّ القناة ويترَّ من مصرِ سودانها
فصرُ الرياضُ وسودانها عيونُ الرياضِ وخلجانها
وما هو ماءٌ ولكنه ورِيدُ الحياةِ وشريانها
تتمُّ مصرَ ينابيعه كما تمُّ العينَ إنسانها
وكانت هذه أول مرة يقرأ الفقى لشوق قصيدة وطنية ، وأخذ يردد أبياتها وينشدّها وخاصة الأبيات الثلاثة الأخيرة ، فقد ظلت لا ترحح ذاكرته أبداً ، وظل إعجابه بشوق وشعره يزداد مع الأيام .

وكان سعد قد اتجه إلى باريس ، وظل بها حتى بارحها إلى لندن في ٢٣ من سبتمبر لمفاوضة ماكدونالد ، وبدأت المفاوضات بعد يومين وفيها قدّم سعد مطالب مصر الكفيلة بتحقيق استقلالها التام ، وأهمها جلاء جميع القوات البريطانية عن الأراضي المصرية وزوال كل سيطرة لبريطانيا عن مصر وعن جيشها في السودان ، بحيث يخرج منه قائده الإنجليزي ومن معه من الضباط الإنجليز ، مع اعتراف

بريطانيا بتنازلها عن دعوى حمايتها لقناة السويس وللأجانب والأقليات في مصر ومع سحبها للمستشارين : المالى والقضالى . ولم تلبث المفاوضة مع ماكدونالد أن تعثرت ، إذ عمد إلى المناورة مع سعد .

ولما تبين لسعد بشكل قاطع سوء نيته هو ووزارته قطع المفاوضة معه وعاد إلى مصر في ٢٠ من أكتوبر مرفوع الرأس موفور الكرامة لمواقفه القوية في المفاوضة وإيائه التنازل عن أى حق من حقوق بلده . ولم يكد يمضى شهر على عودته حتى وقع حادث مروع ، إذ اغتيل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام ، وانتهزت إنجلترا الفرصة فقدّمت إلى سعد بعد يومين إنذاراً عنيفاً ، تطلب فيه اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية وأن تتعقب الجناة وتعاقبهم أشد العقاب وأن تدفع للحكومة البريطانية غرامة مقدارها نصف مليون من الجنيهات . وأسوأ من هذا كله أن تسحب الجيش المصرى من السودان .

وارتضى سعد دفع التعويض المالى غير أنه أنكر أشد الإنكار ما طلبه الإنجليز من خروج الجيش المصرى من السودان وتركه للإنجليز ليجعلوا منه مستعمرة إنجليزية وسط القارة الأفريقية . وكتب المندوب السامى إلى سعد أنه أرسل إلى حكومة السودان بتعليقات تقضى بإخراج الجيش المصرى من السودان ، وأنه أمر باحتلال قوة عسكرية بريطانية للجمارك الإسكندرية ، حينئذ أصر سعد على استقالته في ٢٤ من نوفمبر .

وحدث أن سكن بجوار منزل الفتى تاجر لبنانى يتجر فيما يحلبه من بلده لبنان إلى دمياط من التين والجوز واللوز والفسق والبندق ، وكان هذا التاجر دمث الخلق رقيق الحاشية ، وتعرف أبو الفتى إليه ، كما تعرفت زوجته بوالدته ، وتزاورت الأسرتان وانبغدت بينهما مودة ، وذات يوم دخل الفتى دكان هذا التاجر ، فرحب به ، ووجد الفتى عنده بعض مجلات وكتب أدبية لبنانية ، فاسترعت نظره وأخذ

يَقْلَبُ فيها ، ووجد فيها أشعاراً لبعض اللبنانيين ولبعض الشعراء المهاجرين إلى أمريكا ، كما وجد بعض مقالات أدبية ، فأخذ يقرأ هنا وهناك ، ولاحظ ذلك التاجر ، وكانت فيه نزعة أدبية ، فسأله هل تحب أن تأخذ معك بعض المجلات أو الكتب لتقرأها ، ثم تردّها ، وتمنّع الفتى ، وقال له التاجر إن هذه المجلات والكتب تأتيني دائماً ، ولا بأس أن تتردد علىّ تقرأوها .

وأصبح من عادة الفتى المحبة إلى نفسه أن يمر على دكان هذا التاجر من حين إلى آخر ويقرأ عنده ما يأتيه من مجلات أو كتب أدبية . وكانت هذه القراءات نافذة جديدة للفتى ، كى يقرأ أشعاراً من طراز جديد لا يألفه ، طراز ليس فيه مديح ولا هجاء وإنما فيه شغف بالطبيعة ، وفيه مشاعر وجدانية ونزعات إنسانية وتبرم بما فى الدنيا من شرور وآلام .

وكان من أهم ما لفت الفتى فى أشعار هذا الطراز كثرة ما يجرى فيها من الصور والاستعارات . والأخيلة ، حتى لكأنما غاية الشاعر أن يأتي بطرائفها المبتكرة . ولم يكن الفتى قد عرف أن أصحابها يتأثرون بالترعة الرومانسية الغربية وأنهم لذلك مولعون بالتشبيهات والاستعارات وبتصوير العواطف الحارة إزاء جمال الطبيعة ومفاتها وإزاء الإنسانية وآلامها وأوصابها . وقد غرست هذه الأشعار فى نفس الفتى محبة التصوير فى الأدب وما يجمل من خيالات وأطياف مبتكرة .

وفى ذات اليوم الذى قدم فيه سعد زغلول استقالته واستقالة وزارته يوم ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٤ أُلِفَ القصر وزارة رجعية برئاسة أحمد زبور ، فسلم للإنجليز بكل ما تضمنته إنذاراتهم لسعد وكل ما طلبوه منه ، ولم يسلم فقط بجلاء الجيش المصرى عن السودان ، بل سلم أيضاً بجلاء الموظفين المصريين المدنيين عن القطر الشقيق ، وبذلك وقّع جلاء مصر عسكرياً ومدنياً عن السودان ، وأطلق أبدي المستشارين البريطانيين : المالئ والقضائى ، واتسع بسلطة مدير القسم الأوربى فى

الأمن العام ، وكأنه لم يعد رئيس وزارة مصرية بل أصبح موظفاً في وزارة الخارجية البريطانية فهو ياتمر بأمر المندوب السامي وينفذ كل مطالبه . وبدأ فأجل البرلمان شهراً ، وبعد شهر ثان استصدر مرسوماً بحله .

ولم يلبث زيور أن أسس للقصر حزباً سماه «حزب الاتحاد» وصحيفة باسمه تنطق بلسانه ، وكأنما ظن أنه من الممكن أن يسود مصر حكم مطلق ، تُهْدَرُ فيه حقوق الأمة ، ويكون الأمر كله للحاكم يوجهها كما يشاء ويهوى . وخاب ظنه إذ أجرى في يوم ١٢ من مارس سنة ١٩٢٥ الانتخابات لمجلس نواب جديد ، فجاز الوفد بأغلبية عظيمة وعلى الرغم من ذلك ألف القصر وزارة جديدة اشترك فيها مع حزب الاتحاد حزب الأحرار الدستوريين ، وكان على يكن قد استقال من رئاسة هذا الحزب وخلفه عليها عبد العزيز فهمي فاشترك في الوزارة مع ثلاثة من أعضاء حزبه .

ولم يلبث زيور أن حل مجلس النواب الجديد يوم انعقاده في ٢٣ من مارس وبذلك تعطل الدستور قبل أن يحفّ مداده ، وأصبحت الأمة تحكم حكماً استبدادياً يقوم عليه حزبان لا يمثلان إلا أقلية محدودة في البلاد ، وحتى حزب الأحرار الدستوريين الذي طالما ناضل كثير من أعضائه ضد الإنجليز الفاشمين واشترك غير عضو منهم في وضع الدستور انقلبوا يضحون به على مذبح المناصب الوزارية .

واستفحل حينئذ نفوذ القصر ، وانعكست الآية ، فأصبح هو - لا الأمة - مصدر السلطات . وكان من آثار ذلك أن كثرت الملقق للقصر وصاحب القصر ، وكان أكبر ما أحاط به حزب الاتحاد فؤادا من ملق ما أخذ يوسوس به شياطينه إليه في أنه حرى به أن يطمح إلى الخلافة الإسلامية وأن يصبح خليفة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . وكان بعض المصريين قد أخذ يدعو إلى انعقاد مؤتمر إسلامي

عام للنظر في إعادة الخلافة وفي أولى الحكام المسلمين بتقلدها ، فظن فؤاد ظنا واهماً أنه من الممكن أن تكون الخلافة من نصيبه .

وامتعض الشيخ على عبد الرازق القاضي الشرعى بمحكمة المنصورة لهذا الزيف الذى توشك مصر أن تورط فيه ، فنشر كتاباً ثائراً بعنوان « الإسلام وأصول الحكم » ذكر فيه أن الإسلام دين لا دولة ، وأن الخلافة ليست من أصول الإسلام وأن المسلمين اليوم لا يحتاجون إليها لا في أمور الدين ولا في أمور الدنيا . وأثير غبار كثيف من الجدل حول هذا الكتاب وصُنِّفَت كتب مختلفة للرد عليه . وعدَّ قبلة موجهة لصاحب القصر ، الغرض منها استئصال أمانيه في الخلافة من جذورها ، بل نَسَفَهَا نَسْفاً ، وحَرَّكَ القصر بعض الأزهرين ضد الشيخ وكُتِبَت فيه مقالات وقُدِّمَتْ للقصر عرائض . وفي ١٢ من أغسطس سنة ١٩٢٥ عُقِدَت هيئة كبار العلماء برئاسة شيخ الأزهر لمحاكمته ، وانتهت إلى الحكم بإخراجه من زمرة العلماء .

وانتقل الفتى إلى السنة الدراسية الأخيرة بمعهد الدين سنة ١٩٢٦/١٩٢٥ ولم يكن للمعهد مبنى خاص ولا مقاعد مهيئة للطلاب ، بل كانت الدراسة ، في أكبر جامع بدمياط ، وهو جامع البحر ، وكان مفروشاً بالحُصْر ، وفيه مقاعد مشورة مرتفعة خاصة بالشيوخ المدرسين ، وكان الطلاب يتحلقون حولهم قعوداً على الحُصْر فيما يشبه نصف دائرة ، والشيخ يكون في يده عادة ملزمة من الكتاب المقرر أو من أحد شروحه وفي أيدي الطلاب ملازم مماثلة ، والشيخ يقرأ أو يشرح والطلاب يسألون ويلحون في الأسئلة ، وهو يجيب . ولم يكن الطلاب الممتازون يسألون فحسب ، بل كانوا يعترضون على ما يقوله الشيخ ، ويحاولون بكل ما استطاعوا أن يُخْرِجوه أو يلزموه بما يقولون .

وكان الفتى على شاكلة هؤلاء الطلاب يستعين في ذلك - كما كانوا يستعينون -

بقراءة شروح الشروح أو الحواشي . وكثيراً ما كان يعترض شارح الشرح على مؤلف الشرح ، وقد يعترض أحدهما على صاحب المتن . ومن خلال ذلك كان الصبي ورفاقه يحاورون شيوخهم محاورات شتى ، وكانوا أحياناً لا يكتفون في هذه المحاورات بقراءة شروح الشروح أو الحواشي ، بل يضيفون إليها ما كتبه بعض المؤلفين عليها من ملاحظات ووجه نقد ومراجعات كانت تتضمنها تقارير مطبوعة على هوامش الحواشي للتنبيه على خطأ أو تصحيح هنا أو هناك .

ولا شك في أن هذه الصورة للكتب الأزهرية كما عرفها الفتى في العقد الثالث من القرن الحاضر في صورة المتون والشروح والحواشي والتقارير كانت مشحذة كبرى لعقول الطلاب الأزهرين ، فالكلمة في المتن مختصرة أشد اختصار ، وتُشرح وتُناقش ، والفكرة في الشرح تُشرح بدورها وتناقش مناقشة واسعة في الحاشية . وليس ذلك فحسب بل أيضاً الفكرة في الحاشية يناقشها مؤلف التقرير في أضواء غامرة .

وكثيراً ما سمع الفتى - فيما بعد - نقداً لهذه الطريقة ، وكان دائماً يعارضه لأنه لا يصور الحقيقة ، ولأنه يتجنى على الأسلاف فيما صنعوا من هذه الصورة الجدلية في مختلف العلوم والفنون وخاصة في الفقه وعلم الأصول وفي النحو والبلاغة . ولا ريب في أن من ينقلون هذا النهج لم يعيشوه ولم يعرفوا مدى صقله للعقول وبنائها بناء منطقياً سديداً ، ولو أنهم عايشوه لعرفوا أنه أفاد العقل العربي في مصر وغير مصر خصوصية وغنى لا حد لها ، فكل فكرة ، بل كل لفظة ، تمحّص وتخلل وتختبر حتى يمكن أن توضع الوضع السليم ، وأى اختبار؟ لقد تحولت المتون والشروح والحواشي والتقارير إلى مختبرات كبيرة لعقول أنبه العلماء في كل فرع من فروع العلوم الدينية واللغوية .

ولم يكن أى متن من المتون في أى علم من العلوم مجرد تلخيص لعلم بعينه

تلخيصاً موجزاً ، بل كان مع هذا التلخيص الشديد يحمل مختلف الآراء في المسائل العلمية دون ذكر أصحابها ، وكان يومئذ مؤلفه إليها إيماء ، أو يضع عبارات من شأنها أن تومئ إليها ، وهو لذلك لا يكتب مثنى إلا بعد أن يقرأ أهميات الكتب في العلم الخاص به ، ثم يأتي بعده الشارح وصاحب الحاشية وصاحب التقرير ، فيقرءون الأهميات وكثيراً من كتب هذا العلم ، ويعرضون عليها المتن أو قل يعرضونه على كل ما سبقهم من عقول خصبة فيه ، ثم يعرضونه على عقولهم محاولين النفوذ إلى بعض الآراء السديدة .

وبذلك تصبح دراسة المتن البسيط لهذا الفتى وأنداده أشبه بدائرة معارف صغرى في هذا العلم أو ذاك . وكان الطلبة عادة - مثل الفتى - يُعَدُّون دروسهم في الجامع ليلاً ، فالأنوار فيه ساطعة متقدة إلى نحو الساعة الثانية عشرة ، وتعود إلى الانتقاد والسطوع مع الصباح ، وكان الفتى يؤثر إعداد دروسه في المساء .

وكان يجد متعة لا تقدر في مراجعة الشروح والحواشي والتقارير ، كى يورد على الشيوخ في الصباح ما يعنّ له من اعتراضات . وكان الدراسة في هذا المعهد - كما كانت في الأزهر الشريف - لم تكن لجمع المعارف فحسب ، كما هو الشأن في المدارس المدنية ، بل كانت أيضاً لنشوب معارك جدلية كبيرة ، وهي معارك كانت تعتمد على ما أثاره الأسلاف في شروحهم وحواشيمهم وتقاريرهم ، وعلى ما يثيره الطلاب وشيوخهم من آراء واعتراضات بعضها صلّد كقطع الصخر ، وبعضها هَسَّ كقطع الزجاج . ومهما صَوَّر الفتى - بعد ما تقدمت به السن - من خصب هذه المعارك فلن يبلغ كل ما يريد من بيان أهميتها وقيمتها في بناء العقل وشحذِهِ وإحكام تحليلاته واستنباطاته .

ولاريب في أن هذه المعارك الجدلية المستمرة كانت تتيح - إلى أبعد حد - للأزهريين من جيل الفتى والأجيال قبله وبعده قدرة في تبين احتمالات النصوص ،

وما يمكن أن يؤديه منطوق النص ومفهوميته وما يمكن أن يؤول ويفسره . وقد ألقى ذلك في وعي القتي أن لا يسكن لتقبل المعارف في سر ، بل دائماً يماور ويحادل فيما يلقى إليه وفيما يسمعه ، لا طلباً للجدل والحوار في أنفسهما ، وإنما طلباً لتبين الحقائق العلمية تيناً دقيقاً ، مهما احتل في سبيل ذلك من العناء والمشقة الشديدة في قراءة التقارير والخواشي والشروح ، ومهما بعدت به الطريق ، ومهما كثرت العقبات فيها والصعاب . وإن القتي حين يذكر ذلك بعد أن علت به السن ليشمى أن تغفل هذه الطريقة التعليمية قائمة في الأزهر ومعاهده الدينية ، حتى تستمر لطلابه قوة الجدل ودقة البرهنة والنفوذ إلى دقائق الأفكار .

ومن الغريب أن الجامعات في مصر حين أُسست لم تفد الفائدة التي كانت مرجوة من صورة هذه الطريقة التربوية في الأزهر ومعاهده الدينية . وليس من المعقول أن تدخل صورة المتون والشروح والخواشي والتقارير في الدراسات الجامعية فليس ذلك هو جوهر الطريقة ، إنما جوهرها النفوذ إلى المحاور والمجادلة وعرض مختلف الآراء في المسألة أو الفكرة الواحدة .

وكان من الممكن - على هذا الهدى - أن ينشأ على الأقل في كليات الآداب والحقوق علم يسمى علم احتمالات النصوص ، تدرس فيه الوجوه المختلفة لفهم النصوص الأدبية والفلسفية والقانونية . وكان من الممكن أن يتوسع في ذلك ، فتدرس احتمالات النصوص في الاقتصاد والسياسة .

وكانت الصحف قد ظلت مشغولة فترة طويلة بقضية الشيخ على عبد الرازق صيدته ومعيدة في الحديث عن حرية الفكر وحق كل مواطن في التعبير عن رأيه أو آرائه . وكانت أسرة الشيخ من الأسر الأساسية في حزب الأحرار الدستوريين ، وطلب إلى عبد العزيز فهمي رئيس الحزب ووزير العدل آنذاك أن يفصل الشيخ من وظيفته في القضاء الشرعي ، قرئ إحالة الأمر إلى لجنة قضايا الحكومة لإيداء

الرأى القاطع فيه وهل يؤدى قرار هيئة كبار العلماء فى الأزهر بإخراج الشيخ من زمرة العلماء إلى فصله من القضاء الشرعى حتماً أولاً يؤدى إلى ذلك ؟ .
ورأى القصر وحواشيه أن هذا الإجراء معارضة صريحة لهواه ومشيته ، فأقبل عبد العزيز فهمى من منصبه الوزارى فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥ وأثار ذلك ضجة كبيرة فى الصحف وخاصة صحيفة السياسة لسان الأحرار الدستوريين ، إذ أُقبل رئيسهم من منصبه الوزارى دون رعاية أو نظر إلى أنه رئيس أحد الحزبين اللذين تتألف منها الوزارة . واستقال وزيران دستوريان من الوزارة تضامناً مع رئيس حزبها ، واحتجاجاً على موقف القصر منه . ومثلت مناصبهم جميعاً بوزراء من حزب الاتحاد ، فأصبح هو وحده الذى يدير دفة الأمور بمصر .

وتُحِيل إلى القصر وحواشيه أنهم سيكسبون الرأى العام فى الشعب إلى جانبهم ، بما حاولوا من إثارة مشاعره الدينية ضد الشيخ على عبد الرازق وكتابه ، ونخاب فأنهم فإن الشعب أثبت أنه أكثر حصافة وأكبر من أن يتأثر بدعاية دينية مغرضة ، فلم يأبه لها ولا التفت ، ومضى يعارض - بكل ما استطاع - وزارة زيور التى انتهكت - دون أى حياء - حرمانه الدستورية والسياسية ، وما تزال تتأدى فى انتهاكها دون زاجر أو رادع .

وكانت صحف الوفد تحمل حملات شعواء على زيور ووزارته منذ تأليفه لها ، وانضمت إليها بمجرد خروج الدستوريين من الوزارة صحيفة السياسة الناطقة بلسانهم . وأخذوا يسعون للتعاون مع سعد زغلول فى معارضته للوزارة ، ومدَّ إليهم يده ، وكان زيور لا يزال يسوِّف فى إجراء الانتخابات بعد حلِّه غير الدستورى للبرلمان ، فوجه سعد دعوة إلى أعضائه - وعدَّه لا يزال قائماً - للاجتماع بمبناه فى نوفمبر سنة ١٩٢٥ .

ومضى الأعضاء إلى البرلمان يريدون دخوله ، فلم يستطيعوا حتى الاقتراب منه

إذ وجدوا أنه استحال هو والشوارع المحيطة به إلى ما يشبه ثكنة حرية لا يمكن اقتحامها . حينئذ انجهوا جميعا إلى فندق الكونتينتال وعقدوا به اجتماعهم ، وانتخبوا سعد زغلول رئيسا ، ووسط حاسة دافقة قرروا : عدم الثقة بالوزارة وأن اجتماعهم قانوني ، وأنهم سيوالون اجتماعهم من حين إلى آخر في المواعيد والأمكنة التي يتفقون عليها .

ودخل شهر ديسمبر فزادت الوزارة الطين بلة بعقدتها اتفاقية خاسرة مع إيطاليا بإملاء من الإنجليز تنازلت لها بمقتضاها عن واحة جغبوب كي تضمها إلى مستعمرتها حيثئذ : ليبيا . وأنكر الشعب والصحف الاتفاقية إنكارا شديدا ولم يلبث أن سقط ركن عتيد من أركان القصر باستقالة رئيس الديوان فيه . وبدأت في الأفق بارقة أمل في أن تنفس مصر الصعداء من زيور والقصر وحكهما الجائر الفاسد . وفي شهر يناير انعقد ائتلاف وثيق بين أحزاب مصر الثلاثة : الوفد والأحرار الدستوريين والحزب الوطني ، وأجمعوا أمرهم على العنف بزيور ووزارته ، حتى يضطر راغما إلى عودة الحياة النيابية السليمة . وعقد في فبراير اجتماع برئاسة سعد ، كان امتدادا لاجتماع نوفمبر وفيه خطب سعد زغلول خطبة نارية ملتهبة ، وقرر المجتمعون نفس قرارات نوفمبر الماضية . وأخيرا أجريت الانتخابات في مايو سنة ١٩٢٦ وكان عبد العزيز فهمي قد استقال من رئاسة حزب الأحرار ، وفاز الوفد بأغلبية ساحقة ، وسقط حزب الاتحاد في الانتخابات سقوطا مزميا ولم تقم له بعد ذلك قائمة .

وبعد هذه الانتخابات بثلاثة أيام صدر الحكم في أكبر قضية سياسية تتصل باغتيالات الإنجليز في السنوات الماضية حينئذ وكانت قد لُفِّتَ تهمة خطيرة للوفديين الكبيرين أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي بأنها يشتركان في جمعية سرية لاغتيال البريطانيين وقدِّما للمحاكمة مع نفر لُفِّتَ عليهم نفس التهمة ،

وحكم براءتهما ، وبالتالي براءة حزب الوفد من الاشتراك في حوادث الاغتيال السياسى .

وكانت هذه المحاكمة قد استمرت طويلا ، وترافع فيها صفوة من المحامين الوفديين من أمثال مصطفى النحاس ونجيب الغرابي ومكرم عبيد ومحمد يوسف ومرقص حنا . وكانت الصحف تنشر مرافعاتهم ، وكانت المرافعة الواحدة تملأ أحيانا صفحة أو صفحتين على ما يذكر الفتى ، وكان يقرأها مع بعض رفاقه ويجد فيها متعة كبيرة ، إذ كانت تكتب بلغة بليغة .

وكانت المقالات في الصحف اليومية على حظ غير قليل من البلاغة ، إذ كان يكتبها أنبه الأدباء حيثند مثل هيكل وطه حسين في صحيفة السياسة والعقاد وعبد القادر حمزة في صحيفة البلاغ الوفدية . ومن حين إلى حين كانت تنشر الصحف خطبة بارعة لأحد السياسيين الكبار .

وامتاز سعد زغلول خاصة في هذا المجال ببيانه الساحر الذى كان يستولى به على قلوب الشعب ، وكان الشبان كثيرا ما يحفظون شظايا من خطبه يرددونها ، كقوله في بعض الأحداث وقد ثار الشعب ضد بريطانيا وقال مندوبيهم إن سعدا هو الذى يثير تلك القلاقل : « تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه » وقوله السالف واضعا للشعب شعاره في مطالبته بتحريره بلاده من نير الإنجليز : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » وقوله : « يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل وأن يقوم الحب بين الناس مقام القانون » .

في هذا الجو من خطابة سعد وأمثاله ومن كتابات الأدباء ومرافعات المحامين المفوهين في القضايا السياسية ، وما كان أكثرها حيثند ، كان يتنفس الفتى هو وجيله في العشرينيات ، وهو ما لم يتح للأجيال التالية في مصر ، مما كان له آثاره العميقة في نفس الفتى ونفوس جيله إذا أحسوا بقوة التعبير البياني وحاولوا أن

يصدروا عنه في كتاباتهم ، ويحق أصبح نفر منهم - فيما بعد - من كتاب مصر المعاصرين وأدبائها الناهين .

ومضى الفتى في هذا العام الدراسي - وكان آخر أعوامه في المعهد الديني بدمياط - يعكف على الدراسة وعلى حفظ المتن وخاصة متن الألفية لابن مالك ، وهو ألف بيت تلخص قواعد النحو والصرف . وكان العام عام الشهادة الابتدائية ، وكانت امتحانا عاما ، فالأسئلة تأتي من الأزهر ، وإجابات الطلاب لاتصحح في المعهد الديني ، بل ترسل إلى اللجان المتعقدة في الأزهر لتصحيحها . وطبيعى لذلك ألا يكون ترتيب الطلاب في هذا العام داخل فرقتهم بالمعهد كالعادة بل يكون بينهم وبين طلاب الأزهر ومعاهده الدينية . وكان كل معهد يحرص على أن يكون أوائل الشهادة من حظه . وكان الفتى أول فرقة فكان أساتذته ما يزالون يشجعونه ويحثونه على الجد في الدراسة . وكانوا - كماداتهم - يفسحون له ولرفاقه في صلورهم فليس بينهم من يغضب ، لأن الطالب يعترض على بعض أقواله أو بعض شروحه ، بل قد يعلن نزوله عند رأى الطالب إحقاقا للحق العلمى .

وإن الفتى ليذكر امتحانه الشفوى حينئذ وحضور شيخ المعهد - أو رئيسه - هذا الامتحان واشترآكه مع اللجنة في الأسئلة الموجهة إليه ، وقد سأله إذا جاء فعل المضارع جوابا لفعل الأمر في مثل « ذاكر تنجح » ما الحكم الإعرابى للمضارع ، فقال الفتى له : يجوز جزمه في جواب الأمر بالسكون ويجوز رفعه . وأنكر الشيخ الجليل إجابة الفتى وقال إن المضارع في جواب الأمر يجزم ولا يصح رفعه . فاضطر الفتى أن يستشهد لكلامه بيت من الألفية لابن مالك ضمنه القاعدة بالصورة التى ذكرها وأنه يجوز في المضارع حينئذ الجزم والرفع ، فقال الشيخ على جلالته للفتى مبتسما : من حفظ حجة على من يحفظ ، وسلم له برأيه ، ونجح الفتى النجاح

المأمول في الشهادة الابتدائية الأزهرية .

وفي يونية من صيف هذا العام استقالت وزارة زيور ورأى سعد أن يتخلى عن الوزارة ويؤلفها مستقل ، هو على يكن ، وأشرك معه مستقلا آخر وزيرا للخارجية هو عبد الخالق ثروت . واشترك في الوزارة كثرة من الوفدين وقلة من الأحرار الدستوريين ، وتقلد سعد رئاسة مجلس النواب وحسين رشدي رئاسة مجلس الشيوخ وأخذت البلاد تُحكّم حكما دستوريا سليما . وظلت هذه الدورة البرلمانية قائمة طوال الصيف حتى مطلع سبتمبر . وظل الائتلاف بين حزبي الوفد والأحرار الدستوريين وثيقا .

تحول الفتى فى أول العام الدراسى الجديد إلى معهد الزقازيق الدينى الثانوى ، ليكمل دراسته الأزهرية فيه ، وكانت هذه أول غربة له عن أبويه وأسرته ، وانتظم بين طلاب المعهد الجديد ، ونزل معهم فى مسكن بسيط كان ملحقا بالمعهد ومعدا له ولأمثاله من الطلاب الغرباء ، وهو ردهة واسعة بها مجموعة كبيرة من الأسرة ولكل طالب سريره وصوانه (دولابه) الخاص .

ورأى الفتى أن يترك هذا المسكن لأنه بعيد عن مطاعم البلدة ومسكن فى منزل قريب من المعهد . وأكبَّ على الدروس والمتون والشروح وشروح الشروح يحاول أن يستوعب المواد العلمية فيها ، وهو مع ذلك يحاور شيوخه ويناقشهم ويحادلهم فى كثير من مسائل العلم الذى يعرضونه ودقائقه .

وكان الفتى يكب بالقراءة على ما يظهر من مقالات أدبية فى صحيفتى البلاغ

الوفدية والسياسة الدستورية وملحقيهما الأسبوعيين وكانت تُكتبُ فيهما فصول طريفة عن الفكر والأدب العربيين وكذلك عن الفكر والأدب الغربيين ، وكان طه حسين قد نشر كتابه : « في الشعر الجاهلي » وأثار به ضجة كبيرة في الأجواء الأدبية وفي الكتابات الصحفية ، إذ نقد الأساليب المتبعة في دراسة الأدب العربي ساخرًا منها سخرية شديدة مع دعوة ملحة إلى اتخاذ منهج بعض الفلاسفة الغربيين القائم على الشك بحيث ينبغي أن يشك الباحث في هذه القصيدة أو تلك من قصائد الشعر الجاهلي حتى تثبت له صحتها ، بل لا بأس من الشك في الشعر الجاهلي جميعه حتى يطمئن الباحث إلى صحته .

وذهب طه حسين إلى أن الكثرة من هذا الشعر ليست جاهلية وإنما هي متحلة ، وأخذ يعدد عوامل الانتحال ، وذكر من بينها عاملاً دينياً كان له أثره بجانب العوامل الأخرى في انتحال الشعر الجاهلي ، وانزل في ذلك إلى كلام عدّ دليلاً على إلحاده .

وثارَت ضد طه حسين موجة حادة من النقد العنيف ، قيل في أثنائها إن الجامعة المصرية تنفق عليها الدولة فكيف يسمح لأستاذ الأدب العربي الذي يتناول مرتبه منها أن يعلم الطلاب فيها مثل هذا الإلحاد المنكر ؟ وكيف يبيح له المسؤولون في الجامعة نشر هذه الأفكار للطلاب ؟ واتسعت الحملة وملأت الصحف وتعدتها إلى البرلمان ، وقدم طه حسين إلى الجامعة استقالته ، ولولا سعة أفق الحكومة لطُوح به ، فقد رُدَّت إليه استقالته ، واكْتُئى بمصادرة الكتاب . وكانت النيابة قد حققت معه ، وثبت لها حسن نيته ، وأمرت بحفظ الدعوى . ومرت العاصفة سياسياً ، ولكن ظل لها دوى واسع في الأوساط الأدبية ، وألفت كتب مختلفة في الرد على طه حسين . وأعاد طبع الكتاب باسم جديد هو « في الأدب الجاهلي » وقد صور فيه مناهج النقد الغربي في دراسة الأدب .

وحدث ثان في هذا العام الدراسي كان له دوى بعيد في العالم العربي وأوساطه الأدبية هو انعقاد مهرجان كبير برياسة سعد زغلول لتكريم شوقي شاعر مصر الحديثة اشتركت فيه جميع البلاد العربية بمندوبين من كبار أدبائها وشعرائها كى يضعوا على مفرقه - مع كبار الأدباء والشعراء في مصر - تاج إمارته للشعر العربي الحديث وشعرائه المعاصرين على اختلاف بلدانهم وأقطارهم . وقد حياهم شوقي برائعة من روائعه ، أُلقيت في المهرجان بدار الأوبرا استلها بالحديث عن وصف الربيع وعن شكره لسعد زغلول ، ثم أخذ يثنى ثناء عاطراً على مباحثته بإمارة الشعر من أبناء العرب قاطبة ، وكيف تحولوا بمصر إلى عكاظ ثانية .

وينوه بمصر وحملها ليهكل الدين وروح البيان من قرآنه ، وكيف أنها تقف بشاعرها مع الشرق في أفراحه وأحزانه ، وجراحه وأشجانه . وأخرجت مجلة السياسة الأسبوعية عددا خاصا بهذا المهرجان وما ألقى فيه من خطب وأشعار رائعة في تكريم شوقي ومن بحوث أدبية طريفة . وكان عددا نفيسا ظل الفتى يحتفظ به لنفسه سنين عددا .

وكانت تتولى مقاليد الأمور طوال هذا العام الدراسي وزارة عدلى يكن ، بينما كان يتولى رئاسة مجلس النواب سعد زغلول وظلت له نفس المحبة والزعامة في قلوب المصريين . وسارت شئون الحكم رخاء ، وخرج من الخدمة في محكمة الاستئناف آخر مستشار بريطاني ، وصدر قانون عفو شامل عن كل ما اقترُف من الجرائم السياسية منذ حُلّ مجلس النواب في وزارة زيور ، وأُلغى تسخير الأهالى للعمل في تقوية جسور النيل .

ويقدم عدلى يكن استقالته في أبريل سنة ١٩٢٧ ويصر عليها ويلح عليه سعد أن يبقى في الحكم ويتأدى في إصراره . ويرغب سعد إلى ثروت في تأليف الوزارة ويؤلفها في نفس الشهر من أغلبية وفدية وأقلية دستورية ، ويظل الائتلاف قائما

بين الحزبين الحاكمين ، وفي شهر يولية يذهب ثروت إلى لندن للمفاوضة في عقد معاهدة بين مصر وإنجلترا .

وما إن حلَّ اليوم الثالث والعشرين من أغسطس حتى تجهمت سماء مصر وتلبّدت بغيوم كثيفة وأخذت ترعد وتبرق بنبأ وفاة زعيم الأمة الخالد وقائد نهضتها وموقفها وراثة حقها عليها في تقرير مصيرها بعد مئات السنين : سعد زغلول ، وكان الناس في مصر يتلقون الخبر بالوجوم ، وسرعان ما يتفجرون باكين حتى العجائز والصبية ، فقد كان الجميع يشعرون بهول الفجيعة فقد اختطف منهم أبو الوطن البار الذي رَدَّ إلى مصر وجودها وشخصيتها وأعدّها لتظفر بكل ما اكتسبته سياسيا مع أنها لم تكن تملك سلاحا سوى سيوف كلماته الحادة القاطعة .

واشترك الشرق كله في الشعور بعظم المصائب ، إذ عدَّ سعد زعيم كل الشعوب المهيضة الجناح أمام المستعمرين الغاشمين ويكنى أن غاندى زعيم الهند على بعد داره شهد بأنه زعيمه ، عنه تلقى دروس الوطنية الصارمة في للمفاوضة الصامدة حتى آخر الأنفاس .

وبانت الأمة على الشيع والنواح ، حتى إذا كان الصباح أخذت الجماهير تتدفق إلى منزل الزعيم سيولا جارفة وظلت الطرقات تمتلئ بأمواجها تعج وتضج من منزله إلى قبره المؤقت بجى الإمام الشافعى واستمرت الصحف المصرية تنعاه وتبكيه أياما متوالية ، وظلت تنقل نعى الصحف العربية والأجنبية .

واجتمع مجلس الوزراء وقرر إقامة ضريح له في القاهرة تخليداً لذكراه وإقامة تماثيل له : تماثل في مصر وتماثل في الإسكندرية وشراء منزله « بيت الأمة » وضمه إلى ممتلكات الدولة وأن تظل زوجته العظيمة « صفية زغلول » تسكنه مدى الحياة ، وكل ذلك نفذته الحكومة .

وكان الفتى قد اجتاز السنة الأولى الثانوية بمعهد الزقازيق الدينى إلى السنة

الثانية ، وعلى عادته كان يعكف على قراءة المتون والشروح طوال العام الدراسي . وكان الائتلاف مستمراً بين حزبي الوفد والأحرار الدستوريين ، وانتخب مصطفى النحاس رئيساً للوفد بعد سعد زغلول ، وعاد ثروت من مفاوضاته لتشمل برلن وزير الخارجية البريطانية في نوفمبر يحمل مشروعاً منكراً لمعاهدة بثبتت الاحتلال والحماية وتوثيقها ، وظل يخفيه طويلاً ولا يستطيع إعلانها ، وفي هذه الأثناء وُضع الحجر الأساسى للجامعة المصرية في فبراير سنة ١٩٢٨ مما هيا - فيما بعد - لإحداث نهضة البلاد العلمية والأدبية .

وعُرض مشروع المعاهدة التى يحملها ثروت على مجلس الوزراء فى مارس فرفضه واستقال ثروت ، وشكل مصطفى النحاس وزارته الأولى من حزبه وحزب الأحرار الدستوريين ، واستقال الأخيرون من الوزارة فى يونيه سنة ١٩٢٨ وانتزح القصر الفرصة وأقال النحاس فى نفس الشهر إقالة غير دستورية لأنه زعيم الأغلبية البرلمانية والدستور يمنع ذلك منعاً باتاً . وشكل محمد محمود زعيم الأقلية الدستورية الوزارة فأجّل البرلمان شهراً ثم حُلّه على نحو ما صنع زيور من قبل وزاد عليه تأجيله انعقاد البرلمان ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، وكانت صحف الوفد تحمل عليه حملات عنيفة .

وكان الفتى يشعر بوضوح أن الجو العلمى فى معهد الزقازيق الثانوى أقل بكثير من مثيله فى المعهد الابتدائى بدمياط ، وربما كان مرجع ذلك إلى أن معهد الزقازيق كان معهداً مستجداً فى بيئته ، ولم يكن شيوخه من نفس البلدة بل كانوا من بلدان شتى فى القطر ، بخلاف معهد دمياط الابتدائى فهو معهد دينى قديم بها ، له أصول فى المدارس التى أنشأها المالك مثل قايتباى ومن قبله وأيضاً من جاءوا بعده . وكانت المدارس تنشأ فى المساجد والجوامع الكبيرة ، وقد مضت تعد شيوخاً فى الحقب الماضية حتى سَمَّى الأزهر المدارس الكبرى فى تلك الجوامع والمساجد

معاهد ، حيثئذ أصبح لدُمياط معهدا الديني بجامع البحر .
وأكثر شيوخ هذا المعهد الديني الذين تلقى عليهم الفتي دروسه كانوا من نفس
دُمياط ، من سلالة علمائها الناهيين ، وكانت تتوارث ذلك منهم أسر تشتغل بالعلم
الديني ، يأخذُه اللاحق عن السابق والخالف عن السالف . وكان بين هذه الأسر
تنافس علمي عظيم ، كان يظهر في دروس حرة لهم يلقونها ببعض المساجد لمن يريد
الفائدة والاستبصار في دينه من عامة الشعب الدُمياطي ، ولا مانع لأى دارس من
أن يجلس إلى حلقة الشيخ ويناقشه ويحاوره . وكانت دروسهم للطلاب في المعهد
الديني بجامع البحر أشبه بدروس حرة ، إذ لم تكن تُلقَى - مثل دروس معهد
الزقازيق الديني - في حُجَرٍ أو غرف مقفلة ، يجلس الطلاب فيها على مقاعد مثل
تلاميذ المدارس المدنية ، بل كانت تُلقَى بساحات الجامع في حلقات ، والطلاب
يجلسون على حُصُرٍ مكونين ما يشبه نصف دائرة حول كرسي الشيخ ولا مقاعد
ولا غرف ولا أبواب بل ساحات فسيحة لكل من شاء .

ولم يكن التنافس بين علماء دُمياط وأسرها يقف عند حد إجادة الدروس في
المعهد الديني ، تلك التي تُلقَى دون أى حجاب ، إذ كثيرا ما كان عالم يجلس إلى
حلقة عالم آخر للحوار في بعض المسائل التي تعرض في الدرس ، وحدث الفتي أبوه
أنه رأى - حين كان يحضر قبله في هذا المعهد ويدرس فيه - عالِمين من أُسرتين
علميتين تناظرا في موضوعات علمية ذات يوم من بعد صلاة الصبح حتى المساء
إلا أن يقوموا للصلاة أو لتناول بعض الطعام ، وسرعان ما يعودان إلى المناظرة ،
وعادا إليها في اليوم التالي حتى صلاة الظهر ، وكان يَرَفدُ كلاَّ منهما في المناظرة ابن
لكل منهما عالم من شيوخ المعهد الديني . ولعل في ذلك كله ما يصور مدى ما كان
يحفل به الجو العلمي في معهد دُمياط الديني الابتدائي من نشاط في الدراسات
الدينية وما يتصل بها من الدراسات اللغوية .

كان الفقى يعكف على قراءة المقالات الأدبية فى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، ودفعه إعجابه بأصحاب هذه المقالات إلى اقتناء بعض كتبهم ، فازداد بهم إعجابا ، ولعل ذلك هو الذى جعله يفكر فى الالتحاق بمدرسة دار العلوم وترك الطريق الذى كان أبواه اختاراه له : طريق التعلم الدينى فى الأزهر الشريف ، إذ ظن أن دار العلوم ستساعده فى تكوينه الأدبى بأكثر مما تساعده الدراسة الأزهرية . وكانت لها مدرسة ثانوية تسمى التجهيزية تعدّ الطلاب للالتحاق بها إعداداً علمياً ، فهم يأخذون فيها مواد المدارس الثانوية المدنية من رياضة وطبيعة وكيمياء ويتميزون من طلاب تلك المدارس بمواد خاصة بهم من فقه وعلم كلام وتفسير وحديث نبوى ، أما فى النحو والصرف والأدب فيشركون معهم فى نفس مناهج الدراسة .

وأخذ الفتى بعد نفسه طوال الصيف للالتحاق بها في السنة الرابعة ، وكانت التجهيزية تعقد لذلك امتحانا في آخر الصيف ، فضى الفتى يدرس كتب الكيمياء والطبيعة والرياضة دون معلم شاعراً بغير قليل من المشقة إذ يدرس مثلاً الكيمياء بدون أن يرى أى تجربة لها في معمل ، واستطاع أن يمتاز تلك الصعوبة وما يماثلها في الطبيعة والرياضة مما يحتاج إلى معلم يشرحه ويوضحه . ونجح في الامتحان ، وانتظم بين طلاب التجهيزية بالقاهرة في العام الدراسي ١٩٢٨ / ١٩٢٩ .

وكان يعلم في التجهيزية صفوة ممتازة من شيوخ لم يتخرجوا في مدرسة دار العلوم وإنما تخرجوا في مدرسة القضاء الشرعى ، وكان ناظرها عاطف بركات قد أكمل تعلمه بعد تخرجه في دار العلوم بإنجلترا ، وعاد بأفكار جديدة رأى تطبيقها في مدرسة القضاء الشرعى ، وحاول جاهداً أن يجعل منها جامعة صغرى ، فكان يتحدث إلى الطلاب في ردهاتها ويعرض عليهم بعض المشاكل الفكرية ويحاورهم فيها ، ودفع أساتذة المدرسة وشيوخها إلى محاضراته في الحوار مع الطلاب ، وبذلك استحوطت ردهات مدرسة القضاء الشرعى إلى أروقة فكرية نشيطة . وكان يدرس للطلاب علم الأخلاق مستمداً فيه من كتابات الغربيين . وعمل - بكل جهده - على أن يتمثل طلاب المدرسة الثقافتين : الإسلامية العربية والأجنبية الغربية ، وكان لذلك أثر عميق بعيد في خريجي مدرسة القضاء الشرعى .

ولما أنشئت المدرسة التجهيزية لدار العلوم اختير لها أكثر مدرسيها من خريجي تلك المدرسة ، فجاءوها بالروح التي بثها عاطف بركات فيهم وفي مدرستهم ، مما جعلهم يدفعون بقوة طلاب التجهيزية إلى مناقشتهم في كل ما كانوا يلقون على مسامعهم من دروس الفقه والتفسير والحديث والكلام أو مسائل التوحيد . وكانوا يلقون دروسهم في شكل محاضرات لا قراءة في الكتب على الطريقة الأزهرية . وكانت المدرسة قريبة من ميدان عابدين الحالى بالقاهرة ، فسكن الفتى في حى

وراءها يسمى حى الحنفى ، وشعر بغبطة حين سكن هذا الحى ، لأنه كان يعرف ان شوقى الشاعر المبدع سكنه فى مطالع حياته ، وكان يعجب به ، ولكن شتان بين مسكن شوقى ومسكن الفتى ، شتان بين قصر وخدمه وحشمه وكوخ أو قل حجرة متواضعة كانت منامة للفتى ومطما ومكتبا .

وعرف الفتى أن شيوخا كبارا يحاضرون الناس فى الجامع الأزهر بعد صلاة الصبح جمهورهم من طلاب الأزهر والشباب من شيوخه ، وهم يجلسون على مقاعد مرتفعة ، ولكل منهم حلقة وجمهوره وطلابه . ولا يتقيد أى مستمع بحلقة معينة ، بل يجلس فى أى حلقة كما يشاء ، أو بعبارة أدق يجلس إلى أى شيخ يختاره ، فالحلقات مباحة للجميع .

ولم يكن الفتى يعرف أن وراء هذه الحلقات فى الأزهر دراسات غير نظامية وخاصة للغرباء ، فهم يحضرون على شيوخ مختلفين كما يريدون غير متقيدين بسنوات ولا بامتحانات ، وما يزالون يترودون من حلقات هؤلاء الشيوخ ، حتى إذا أنسوا فى أنفسهم القدرة على أداء امتحان العالمية (شهادة الأزهر العالمية النهائية حينئذ) تقدموا إليها ، فإذا كان من حظهم النجاح ، وإما أخفقوا ولم يكتب لهم النجاح المظنون ، فيعودوا إلى الاستماع إلى الشيوخ والتروود ثانية للامتحان فى العام القابل ، إذ يعيدون الكرة ، وربما أعادوا الكرات ، حتى يحصلوا على تلك الشهادة . ويحانب هذه الدراسات الأزهرية الحرة للطلبة غير النظاميين كانت هناك الدراسات المنتظمة التى بدأها الفتى فى معهد دمياط الابتدائى ومضى يستكملها فى معهد الزقازيق الثانوى ، وكان مفروضا إذا أتمه أن يتحول منه إلى القسم العالى فى الأزهر ، فيمضى فيه أربع سنوات تختتم بامتحان الشهادة العالمية النظامية . وهذا القسم النظامى كانت تتبعه الدراسات الأزهرية فى معاهد الإسكندرية وطنطا وأسيوط والزقازيق ودمياط لهذا التاريخ .

وظل القسم غير النظامى قائما فى الأزهر مدة غير قليلة ، وهو القسم الأقدم ،
وكان دروس الشيوخ الكبار بعد صلاة الصبح - وربما جعلها بعضهم فى المساء -
صورة من هذا النظام القديم ، كان ينهض بها بعض شيوخ الأزهر النابهين ، وكان
يحضرها بجانب طلاب الأزهر وعلمائه الشبان كثيرون من مختلف الأوساط بين
المثقفين . وكان من هؤلاء الشيوخ من يختار لنفسه ومحاضراته مسجدا آخر غير
الأزهر يلقى دروسه فيه ، ويختلف إلى المسجد الذى اختاره طلابه وجمهوره المستمع
بعلمه .

ولا شك فى أن هذه الطريقة الحرة فى التعليم الأزهرى غير النظامى كانت
جيدة ، وكان الفتى يعجب بها ، فالشيوخ يلقون دروسهم ومحاضراتهم ولا حضور
يسجل للطلاب ولا غياب أو لا تقييد للحضور أو لغياب فهم أحرار يتحلقون
حول من يرغبون فى التزود العلمى منه ، ولهم أن يختاروا هذا الشيخ أو ذاك وأن
يجلسوا إلى هذه الحلقة أو تلك حسب رغبتهم ومشيتهم . وعرف الفتى - فيما بعد -
أن الجامعات الألمانية تأخذ بشيء من هذا النظام الأزهرى القديم ، إذ تسمح
للطلاب أن يستمعوا فى بعض المواد العلمية إلى هذا العالم أو ذاك .

وكأنما نظرت إلى الطريقة الأزهرية القديمة الجامعات الأمريكية والأوروبية التى
تأخذ بنظام الفصول ، وهو نظام يتيح للطلاب الجامعيين المتخصصين فى فرع من
فروع العلم والأدب أن يختاروا بعض المواد ويؤثروها على مواد أخرى بحيث يكون
للفرع مواد أساسية يتحتم على كل طالب من طلابه أن يعنى بدرستها ، ويدرس
بجانبا مواد متنوعة من الدراسات الإنسانية أو العلمية أو الفنية . وللطلاب الحرية
كل الحرية فى اختيار هذه المواد الإضافية حسب رغباتهم فتجد متخصصا فى فرع
من فروع الآداب قد يختار الرياضة أو فرعا منها أو يختار فنا كال موسيقى . ولا يتيح هذا
النظام الفصلى للطلاب فقط الحرية فى اختيار المواد الإضافية التى يدرسها بل يتيح

له أيضا اختيار الأساتذة الذين يرى من حقه أن يدرس عليهم ويستمع إلى محاضراتهم .

وواضح أن تلك الطريقة الفصلية في التعليم الجامعي الأمريكي والأوربي تلتقي بالطريقة الأزهرية القديمة ، ولا تغلو إذا قلنا إن الطريقة الأزهرية المذكورة كانت أوسع حرية . وكان حريا بمن أنشئوا التعليم الجامعي في مصر أن يفيدوا منها - منذ إنشائه - لا يادخالها جملة في هذا التعليم ، بل بالاستفادة بها والاسترشاد . وحقا استرشد بها طه حسين حين أصبح عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، فأنشأ بها نظام المستمع الحر من غير طلاب الكلية حتى يختلف المستمع إلى ما يريد من محاضرات الأساتذة في الكلية ، غير أن هذا النظام لم يشر المرة المرجوة لفقده الغاية الواضحة منه . وكان أولى من ذلك الاهتمام بفكرة المحاضرات غير النظامية التي لا تؤدى فيها امتحانات ، ومع ذلك كانت من أهم الوسائل الأساسية في تكوين العقليات الأزهرية الممتازة ، إذ كان كثيرون من الطلاب الأزهريين يوالون حضورها ويستمعون فيها إلى أفكار الصفوة من شيوخ الأزهر ، ويرون رؤية واضحة كيف يتناولون المسائل وكيف يعالجونها وكيف يستنبطون ببصائرهم النافذة آراءهم الدقيقة .

وخير ما يصور ما كان لهذه المحاضرات غير النظامية من آثار بعيدة لا في الأزهر وبين علمائه فحسب بل أيضا في الفكر المصرى الحديث محاضرات الشيخ محمد عبده في الرواق العباسي بالأزهر الشريف وما كوّنت من تلاميذه ومريديه ، بل من مدرسته التي اتسعت آفاقها ، فشملت العالم الإسلامى جميعه .

وكان ينبغي أن تفيد بعض الكليات الجامعية - على الأقل - عند إنشائها من طريقة هذه المحاضرات غير النظامية ، فثلا لو أن كلية الحقوق نُظِّمت بها محاضرات على شاكلة المحاضرات الأزهرية غير النظامية لبعض الشخصيات القانونية الممتازة

المشهوره حينذاك لانتفع بها الطلاب الحقوقيون أكبر نفع : محاضرات لا يمتحن فيها الطلاب وتعود عليهم بفوائد عظيمة ، إذ يرون مشاهد رائعة لعقول قانونية ، يأخذون عنها أفكارها وتجاربها وخبراتها وتحليلاتها لبعض مواد القانون المدنى مثلا أو القانون الجنائى أو غيرها من القوانين . والفرصة لا تزال سانحة إلى اليوم ، ليدخل شىء من ذلك فى الدراسات الجامعية فتتظم فى كل كلية محاضرات عامة لبعض الأساتذة القدامى ، ومن لم يستطع أداءها أسبوعيا أدّاها شهريا أو من حين إلى آخر على مدار العام الدراسى .

ومن المحقق أن هذه المحاضرات غير النظامية فى الأزهر الشريف كانت تحدث تنافسا قويا بين الشيوخ إذ كان كل منهم مهتدا بأن ينصرف عنه الطلاب إلى زميله ، لما ذكرت من أنه كان من حقهم أن يحضروا لمن يرغبون فى الاستماع إليه ، وأن ينصرفوا عن غيره حسب مشيئتهم ، وكان معلوم فى ذلك على مادة الشيخ العلمية . ومن أجل ذلك كان لابد لمن يجلس إلى الطلاب فى تلك المحاضرات أن يكون عالما غزير العلم فى مادة محاضراته ، ولا بد أن يكون من ذكاء القرحة ومن نفوذ البصيرة بحيث يعد حجة فيها ، حجة لا يبارى ولا يحارى .

ومن كان يقعد للطلاب ويسمعونه ويحلونه غير أهل لمقعده لا يعودون إليه أبدا . وبذلك كان تخلق طلاب الأزهر وشباب العلماء من خريجيه وتجمعهم حول شيخ وإصغاهم لكلامه شهادة لا تعد لها شهادة ، بأنه عالم يفقه العلم الذى يحاضر فيه فقها أعمق الفقه ، ويحلل مسائله تحليلا أدق التحليل . ومعنى ذلك أن شهادة العالمية التى كان يحصل عليها أحد هؤلاء الشيوخ الذين ينهضون بتلك المحاضرات لم تكن هى التى تسوّغ له الاضطلاع بها والتفاف جمهور حول مجلسه بل كانت خبرته العلمية الطويلة وكفاحه العلمى الشاق هما اللذان يتيحان له هذا العمل الرفيع .

وحبذا لو عُيِّت الجامعات المصرية - كما قلنا - بشيء يقترب من هذه الطريقة على الأقل من حيث العناية بالمحاضرات العامة يلقيها صفوة من العلماء في كل كلية . أما الطريقة بمخاديفها وأن يكون لكل مادة أكثر من أستاذ وأن يتخير الطالب الأستاذ الذى يدرس عليه المادة فإن ذلك يعرّض تحقيقه الآن لقلّة أعضاء هيئة التدريس في الجامعات ، ولعلمهم يتضاعفون في المستقبل بحيث يمكن أن يكون للمادة الواحدة في الفرقة الواحدة أكثر من مدرس وأستاذ ، ليعتار الطلاب منهم من يشاءون ، وبذلك تتسع المنافسة بين علمائنا وتزداد نهضتنا العلمية ازدهارا . وكان الفتى كثير الاختلاط بطلاب الأزهر وبيع بعض مدرسيه وعلمائه من أقربائه الذين تخرجوا فيه ، وعرف منهم أن امتحان العالمية في الأزهر ليس امتحانا تحريريا فحسب بل كان أهم من الامتحان التحريري حيثند امتحان شفوى عسير في موضوع يختاره الأزهر للطلاب في الفقه أو في الأصول أو في غيرهما من العلوم ، ويظل يعده أياما طويلا لا يكاد يترك فيها كتابا تناول المادة العلمية فيه وما يتصل بها إلا ويقرؤه .

وما يزال الطالب مكباً على موضوعه يدرسه من جميع جوانبه العلمية حتى إذا حُدد له يوم الامتحان أحس برهبة شديدة ، لأنه سيجلس إلى لجنة من كبار العلماء ويناقشونه في الموضوع وكل ما يجرى فيه من أحكام وأفكار ، ولا يتركون في الموضوع جانبا فقهيا أو أصوليا أو نحويا أو بلاغيا إلا ويسترسلون معه في الأسئلة المتصلة به يريدون أن يعرفوا كل ما عنده ، وهل هو صالح ليحمل شهادة العالمية الجليلة ، أو لا يزال يحتاج إلى إعداد أوسع وأكبر .

وكانوا يسمون الموضوع المحدد للطلاب درسه باسم خاص هو « التعيين » لأنه عين له وحدد ، وكان يوم امتحانه فيه يوما مشهودا ، لصعوبة الامتحان وصعوبة ما يُطرح فيه من أسئلة تلم بجميع ما درس الطالب في الأزهر طوال سنه من المواد

العلمية . ومن أجل ذلك كانت شهادة العالمية تشهد لمن يجعلها بأنه عالم ديني يتقن علوم الدين فيها واستيعابا وتحليلا .

وفي مطلع العام الدراسي للفتى بالتجهيزية صدعت المدارس في تركيا لمشينة مصطفى كمال في تغيير الخط التركي في تعليم الناشئة بالخط اللاتيني وحروفه ، وكان قد أصدر أمرا بذلك في شهر أغسطس وأخذت المدارس التركية في تطبيقه منذ شهر نوفمبر ، وأثار ذلك ضجيجا كبيرا في الصحف المصرية ، فكان هناك مؤيدون لمصطفى كمال فيما يريد من تغريب بلاده أو جعلها مثل البلاد الغربية متخذاً لذلك وسائل عدة ، من أهمها هذه الوسيلة الخطية في ظنه وتقديره .

وكان هناك معارضون لا يحبذون لتركيا هذا الاندفاع الشديد نحو تقليد الغرب . ومحاولة محاكاته في كل شيء حتى في الكتابة وحروفها ومعروف أن تغيير الأمة لخطها ليس من القوى الدافعة لها كي تحدث ما تريد من التطور ، إذ المهم ما نحمل حروف الخط من المعارف والعلوم والآداب . وما الخط إلا آتية تودع الأمة فيها شرابها العلمي والأدبي والفكري ، شرابا مختلفا ألوانه ، والمهم الشراب لا الآتية التي نحمله .

وأهم من ذلك أن تغيير الأمة لخطها من شأنه أن يعرضها لخطر عظيم إذ بذلك تقطع الصلة بين حاضرها وتراثها الماضي جميعه ، لأنه مكتوب بخط مغاير لخطها الجديد ، ولن يمرَّ جيل حتى يصبح خطها وتراثها القديم نسبيا منسيا . وكان الخط القديم تُدرّس به في المدارس بجانب التركية اللغتان : العربية والفارسية ، فأمر مصطفى كمال بإلغاء هاتين اللغتين من المدارس التركية ، وبذلك قطع الرابطة - التي كانت لا تزال باقية - بين تركيا والبلاد العربية .

وكان الفتى طوال هذا العام الدراسي في التجهيزية يحس بوضوح محنة مصر حينذاك باجتيازها لدورة قائمة من دورات حياتها الحديثة ، إذ كان يحكمها محمد

محمود - رئيس الأحرار الدستوريين - حكماً صارماً أهدرت فيه الحياة الدستورية والحريات العامة إذ مُنعت منعا باتاً الاجتماعات وحُرم على الطلبة القيام بالمظاهرات ، وقُيدت الأقلام ، وحُجبت عن الظهور بعض الصحف وخاصة الوفدية ، وامتد ذلك أحياناً أشهراً معدودات . ومن حين إلى حين كانت تذهب بعض الجموع - وخاصة من أعضاء البرلمان - إلى القصر للاحتجاج على هذه الوزارة وانفرادها بحكمها الاستبدادي دون الشعب وإرادته ، ولكنها كانت دائماً تردُّ دون غايتها - بواسطة الشرطة وعصبيها الغليظة - رداً غير كريم .

ومبالغة في الكيد لمصطفى النحاس خليفة سعد في زعامة الوفد ومحاولة في تأليب الشعب عليه وعلى حزبه الوفدى لفقت هذه الوزارة عليه وعلى اثنين من زملائه المحامين اللامعين في الحزب تهمة الإخلال بشرف مهنتهم في قضية لأحد الأمراء ولم تلبث أن أحالتهم إلى مجلس المحامين في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨ ، واهتر الشعب لهذه القضية هزة قوية ، وترافع فيها مدافعا عن النحاس وزميليه مكرم عبيد ونجيب الغرابي وغيرهما من كبار المحامين الوفديين ، وحكم مجلس التأديب ببراءتهم ، وتبين أنها قضية مختلقة مزورة . وكانت تشد الفتى دائماً المرافعات حينئذ في القضايا السياسية إذ كانت الصحف تنشرها وكان يترافع فيها أقوى المحامين في مصر حجة وأقصحهم لساناً وأبلغهم بياناً .

وتصادف أن حزب العمال البريطاني ظفر بالأغلبية في الانتخابات العامة بإنجلترا في سنة ١٩٢٩ وتولى هذا الحزب مقاليد الحكم ، فسعى محمد محمود - وكان في لندن - في عقد معاهدة بين مصر وإنجلترا ، وبدأت في شهر يونية مفاوضات رسمية بينه وبين هندرسن وزير الخارجية البريطاني ، ظلت نحو شهرين وانتهت بمشروع معاهدة ، قدم به محمد محمود إلى مصر آملاً أن يوافق عليه الوفد ، وهو باق مع وزارته في كراسى الحكم ، غير أن الوفد أبى النظر في مشروع تلك المعاهدة

إلا بعد عودة الحياة الدستورية وإجراء الانتخابات ، ولم ير محمد محمود بدءاً من تقديم استقالته ، فقدما في شهر أكتوبر ، وبمجرد تقديمه لها ألف الوزارة على يكن لإعادة الحياة الدستورية وإجراء انتخابات حرة سليمة .

وكان الفتى قد عاد إلى القاهرة للانتظام في العام الدراسي الأخير بالتجهيزية وكان حين دخلها تحول من لبس الزى الأزهرى إلى لبس الزى الإفرنجى ، وغريب شأن الإنسان فإن كثيراً من الأشياء الخارجية يترك تأثيرها في نفسه حتى أنه الأشياء ، فما بالنأ يرمى إلى الدين ودراساته ورمى يرمز إلى الحياة المدنية وبعض العادات الغربية ، ولا ريب في أن هذا التغيير الخارجى للزى ترك في نفس الفتى آثاراً بعيدة ، لعل أوضحها أنه أصبح أكثر استعداداً لتقبل ما كان بدور على أقلام الأدباء حيثل من دعوة للتجديد ، وكان يعجب بشيوخه في التجهيزية وخاصة خريجي القضاء الشرعى لكثرة ما كانوا يثيرون فيه وفي رفاقه من الأفكار ، وكانوا حريصين على أن يلفتوهم إلى ما كان يكتب في الأدب من مقالات في البلاغ الأسبوعى والسياسة الأسبوعية وفي مجلتي الهلال والمقتطف .

ولفت الفتى ما كان يكتب في مجلة العصور ، وخاصة ما كان يكتبه مصطفى صادق الرافعى عن ديوان العقاد وقد جمع ما كتبه من مقالات في تلك المجلة عن هذا الديوان ونشره في كتاب سماه « على السقود » وهى الحديدة التى يشوى عليها اللحم . وكان الفتى يحس أن الرافعى يتجنى على العقاد في كثير من نقده لشعره ، وأنه لا يبتغى تحليله ولا بيان مواطن الجمال فيه والروعة ، وإنما يبتغى ذمه وثلبه بلغة ليست من لغة النقد فى شيء ، لغة هجاء قانس مرير ، يتخذ فيها البيت من أبيات العقاد ، بل الكلمة فى البيت ، خيطاً أو حبلاً ينشر عليه هجاءه الجارح .

وكان العقاد قريباً قريباً شديداً من نفوس الشباب إذ كان كاتب حزب الوفد غير منازع ، وكان هو الحزب الذى يتبعه سواد الأمة ، ويتبعه الشباب فى التجهيزية

وغير التجهيزية . وكان شيوخ الفتى - وخاصة الخريجن من مدرسة القضاء الشرعى - يترعون مترعا وفديا متطرفا ، إذ كانت مدرستهم وفدية متطرفة لقيام عاطف بركات عليها ، وكان من أقرباء سعد ونفى معه إلى جزائر سيشل سنة ١٩٢١ وكان طلابه يحبونه حبا جمًا . ومصر نفسها جميعها كانت وفدية إلا قليلا من الإقطاعيين ومن حفقوا بهم في مدارهم ومدار القصر . ومها يكن فقد كان شيوخ الفتى في التجهيزية يكثرّون له ولرفاقه من الحديث عن العقاد مكبرين له ، لكثافته السياسية الوفدية من ناحية ، ولكتابته الأدبية البارعة من ناحية ثانية . فكان انفق يقرأ فيه كثيرا في نثره وشعره ، كما كان يقرأ في كتابات هيكل وطه حسين والمازنى ، وبحق كان الأربعة يحملون حينئذ ألوية النهضة الأدبية .

وكان مقررا على الفتى ورفاقه في هذا العام الدراسى الأخير بالتجهيزية تفسير مجموعة من أجزاء القرآن الكريم ، وكان يفسرها لهم شيخ حصيف من شيوخ مدرسة القضاء الشرعى هو الشيخ على حسب الله . وكان الفتى يكثر معه من الحوار في فهم بعض الآيات الكريمة ، وكان الشيخ بصفى إليه ويستجيب لبعض آرائه . ورأى الفتى أن يبادر إلى صنع تفسير لهذه الأجزاء المقررة يعتمد عليه في استذكاره الدروس آخر العام الدراسى ، ولكن أى كتب التفسير يستعين بها في هذا العمل ؟ لقد رأى أن يستعين بتفسير الكشاف للزمخشري ، وكانت له شهرة عريضة منذ تأليفه له حتى بين أهل السنة ، مع أن الزمخشري كان من المعتزلة وهو ييث في تفسيره كثيرا من آراء المعتزلة ، مما جعل بعض أهل السنة يتصدى للرد على آرائه الاعتراضية في تفسيره . ومع ذلك كان جمهور أهل السنة يعجبون بهذا التفسير منذ ظهوره وينصحون طلابهم بقرائه لما امتاز به من جمال الصياغة ، ولما نثره في تفسيره من نظرات بلاغية جيدة .

ووضع الفتى تحت بصره هذا التفسير وضم إليه تفسير البيضاوى السنّى ، ونفذ

من التفسيرين إلى وضع تفسير مقتضب للأجزاء القرآنية المقررة عليه وعلى رفاقه . وكانت هذه هى المحاولة الثانية للفتى فى التصنيف بعد تصنيفه القديم فى النحو بمعهد دمياط الدينى أيام صباه . ولم يحتفظ الفتى بهذا التصنيف فى التفسير كما لم يحتفظ بتصنيفه السابق فى النحو ، حتى إذا تقدمت به السن تمنى لو أنه احتفظ بالعملين للمستقبل ، إذن لعرف كيف كان يصنف وهو صبي صغير ثم كيف كان يصنف وهو فتى فى التاسعة عشرة من عمره .

وكان عدلى يكن قد أخذ - منذ توليه الحكم - يعد العدة لانتخابات مجلس النواب ، وأجراها فى شهر ديسمبر وفاز فيها الوفد فوزاً ساحقاً كعادته فى كل انتخابات حرة . وكان الأحرار الدستوريون بزعامة رئيسهم محمد محمود قرروا عدم الاشتراك فى هذه الانتخابات ، لما كانوا يعلمونه من انقضاى الأمة عنهم وأنها لن تنسى لهم ولرئيسهم فى وزارته حلة للبرلمان وتأجيله لانعقاده ثلاث سنوات ، لولا أن تطورت الظروف ، واضطر محمد محمود إلى تسليم مقاليد الأمور إلى عدلى . وخرج على قرار الأحرار الدستوريين بعض الأعضاء ورشحوا أنفسهم مستقلين ولكن قلما كُتب لأحدهم النجاح . وألف مصطفى النحاس الوزارة فى يناير سنة ١٩٣٠ ومضى ينهض بأعباء الحكم .

وقبيل آخر العام الدراسى زف بعض الشيوخ فى التجهيزية من خريجي مدرسة القضاء الشرعى إلى الفتى ورفاقه بشرى هى أن كلية الآداب بجامعة فؤاد (جامعة القاهرة الآن) ستفتح أبواب قسم اللغة العربية بها لقبول طائفة من خريجي التجهيزية وطائفة ثانية من حملة الشهادة الثانوية الأزهرية ، ليكملوا دراستهم فيه ، اذ رأى طه حسين - عميد كلية الآداب حينئذ - وزملاؤه من أعضاء قسم اللغة العربية أنه من الخير أن يتيحوا لمجموعة ممن حفظوا القرآن الكريم واستظهروه فى صباهم ثم درسوا العلوم الدينية وعلوم العربية فى شىء من التوسع أن يتابعوا

الدراسة في القسم المذكور ويتخرجوا فيه .

وبذلك يتيح قسم اللغة العربية في كلية الآداب لمصر شبانا يحسنون تعليم العربية كما يحسنون الفقه بالدراسات الأدبية الحديثة التي يزود بها أساتذة القسم طلابه جامعين بين القديم والجديد أو بين الدراسات القديمة والدراسات الحديثة جمعا من شأنه أن يبيى الفرصة لجامعة القاهرة كي تخرج شبابا يتقن العربية ويفقه أسرارها فقها سليما ، كما يتقن أدوات البحث الحديثة في الأدب والنقد إتقاناً قوياً . وصمم الفقى في دخيلة نفسه على الالتحاق بكلية الآداب حين تفتح أبوابها له ولرفاقه في العام الدراسي المقبل .

وكان البرلمان قد اتخذ قرارا في شهر فبراير بتفويض وزارة النحاس في مفاوضة الحكومة البريطانية وسافر وفد للمفاوضة برئاسة النحاس إلى لندن في شهر مارس ، ولقى هندرسن وزير الخارجية البريطاني ، وبدأت المفاوضات . غير أنها أخذت تتمتع وتخطمت سفيتها في أوائل شهر مايو على صخرة صلبة ، هي صخرة السودان ، إذ أصر النحاس على السماح للمصريين بالهجرة إلى السودان لمن شاء منهم ذلك دون قيد ، كما أصر على أن لا يظل للإنجليز حكم السودان ثنائيا مع مصر إلا مدة عام واحد .

وعاد النحاس إلى مصر بعد إخفاق مفاوضاته ، وكان مقروضا أن يتضمن جميع عناصر الأمة معه في موقفه ضد سياسة الإنجليز الغاشمين ، ولكن سرعان ما قرأ لمصطفى النحاس أن الأحرار الدستوريين يحاولون الوصول إلى كراسي الحكم بأى ثمن حتى لو كان الثمن الإطاحة بالدستور ، وأسرع النحاس فأعد مشروعا لقانون بمحاكمة الوزراء إن هم عطلوا الدستور أو حذفوا مادة من مواده ، أو عطلوا حكما من أحكامه ، وكذلك إن هم خانوا أمانة الحكم وبددوا شيئا من أموال الدولة .

وكثرت الشائعات حيثُذِرَ بأنَّ القصر سيمرتكب حماقة بشعة من حماقاته هي حلَّ البرلمان وتعطيل الدستور ، حتى يخرج النحاس ووزارته من الحكم ، وغضب النواب الوفديون حين علموا ذلك غضبا شديدا ، وخطب العقاد خطبة نارية ملتهبة توعَّد فيها كل من يحاولون العبث بدستور الأمة بسوء المصير قائلا في عنف : « إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه » وارتعدت قرائصُ قواد وحواشيه وأعوانه ، غير أن الفتى والشعب جميعه أكبروا في العقاد موقفه وشجاعته . وضاق النحاس بالذرائع التي تحاك من حوله فقدم استقالته في شهر يونية سنة ١٩٣٠ وخلفه إسماعيل صدقي .

وكان الفتى قد عاد إلى دمياط في الإجازة الصيفية ، وعلى عادته زار قريته وقرية أخواله ، وفي القرية الأخيرة وجد أهلها لا يزالون يتداولون قصة ، منذ انتخابات عدلى يكن المارة ، مؤداها أن ريفية من القرية ذكروا له اسمها واسم زوجها سأله حين عاد من الانتخابات انتخبَ سعدا أو عدلى ؟ وكان عدلى لا يزال في رأى كثيرين من أهل الريف يرمز إلى حزب الأحرار الدستوريين رغم استقالته المبكرة منه .

وكأنما كان قد استقر في أذهان بعض أهل القرى الريفية بأن من ذهب إلى الانتخابات إما أن يتخب سعداً رغم وفاته ، وإما أن يتخب عدلى رغم اعتزاله الحزبية ، وأجاب الرجل زوجته مازحا أو غير مازح : انتخبَ عدلى . وفوجئ بها تستر وجهها من دونه ، وتقول له : لقد حرمت عليك ولم تعد زوجى . وعشا حاول الزوج أن يصحح لزوجته القروية فكرتها ، فقد ظلت تماريه طويلا معتقدة أنها أصبحت محرمة عليه . ولما أعياه إقناعها خرج فيبحث عن مأذون القرية حتى وجده وأناها به ، فأقنعها بخطئها وما ظنته بزوجها من مفارقتها لديه .

ولعل في ذلك ما يصور من بعض الوجوه كيف أن الانتماء لحزب الوفد

ولزعيمه سعد تحول في نفوس بعض أهل الريف البسطاء إلى ما يشبه العقيدة حتى ظن بعضهم أنه جزء من الدين الحنيف على نحو ما ظنت تلك المرأة الريفية الساذجة . ولم يكن ذلك غائبا عن أذهان خصوم الوفد من المشتغلين بالسياسة . ومع ذلك كانت تغرهم الأمانى من حين إلى حين فيظنون ظنا واهما أنهم يستطيعون أن يزعموا مكانة الوفد الراسخة في نفوس الأمة على نحو ما غرت « زيور » سنة ١٩٢٤ وعلى نحو ما غرت محمد محمود في صيف سنة ١٩٢٨ وكما تغر إسماعيل صدقي في يونية الآن سنة ١٩٣٠ إذ سولت له شياطينه أنه يستطيع سحب ثقة الأمة بالوفد ، وأغواه بذلك القصر والإنجليز فألف الوزارة في نفس اليوم الذى استقال فيه النحاس .

وبدأ صدقي في اليوم التالى لتأليف وزارته بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا ، وماجت البلاد بالثورة ضده ، ومضى يحاول قهر الشعب بإطلاق الجند والشرطة النار عليه ، مما زاد الثورة اشتعالا ، وخاصة حين رآه الشعب يفضّ الدورة البرلمانية .

وجزع الإنجليز لتلك الثورة ، واذا رئيس وزرائهم ماكدونالد يصرخ في مجلس العموم عندهم بأن إنجلترا تقف من الأحداث في مصر موقف الحياد ، مع تنصلها من تبعات صدقي في اعتدائه على دستور البلاد . ومع عدّه مسئولاً عن أرواح الأجانب وممتلكاتهم في مصر إذا تعرضت للخطر .

وأبلغ الإنجليز هذا التصريح رسميا إلى صدقي ، فرد عليه بمحافظته على أرواح الأجانب ومصالحهم ، أما ما يتصل بالاعتداء على دستور البلاد فلم يتصل منه بل قال إن مصر لم تلتمس فيه معونة من إنجلترا إذ هو من شئوننا الداخلية ، التى لها الحق كل الحق أن تتصرف فيها كما تشاء .

وهى مناورة سياسية من ماكدونالد وصدقي ، فماكدونالد يعلن حياد إنجلترا ،

وهو حياذ كاذب ، إذ هي التي أغوت صدق من وراء ستار أن يعتدى على الدستور ويتادى في عدوانه كما سئى بعد قليل ، وصدق يعلن في جرأة اعتدائه على حقوق الأمة في دستورها ، آخذاً بذلك موثقاً من الإنجليز .

وكان الطلبة غادين على بيت الأمة راغمين للقاء النحاس ورجال الوفد ، وكانوا يذهبون إلى بيوت كبار الساسة المصريين يسمعون منهم رأيهم في تلك الغيوم التي أخذت تنعقد في سماء مصر .

ومن أطرف النكت التي قلت بصدد رد صدق على ماكدونالد بأنه ليس من حق إنجلترا أن تتدخل في شئون مصر الداخلية ما جاء على لسان المحامي الكبير إبراهيم الهلباوى حين تعرض له أحد الطلبة يسأله عن رأيه في هذا الرد وكيف تقبله إنجلترا في صمت ؟ حينئذ أجابه الهلباوى : لا تعجب يا بنى فإن الإنجليز يحسبون صدق منهم ولو أعلن رئيس وزارة مصرية آخر في وجه الإنجليز ما أعلنه صدق لأرسلوا إليه غاضبين توعدا وتهديدا وإنذاراً شديداً .

كان الفتي قد أنهى دراسته بالتجهيزية وصمم في العام الدراسي الجديد : ١٩٣٠/١٩٣١ على الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة فؤاد (جامعة القاهرة الآن) . وقُبل بين كثيرين كانوا نحو ثمانين طالبا من الأزهر والتجهيزية . جاءوا - جميعا مشوقين إلى الاستماع لظه حسين ومحاضراته وما يتحدث من دراسات نقدية جديدة في الأدب العربي وأدبائه . ورأى قسم اللغة العربية أن يتظموا في سنة تمهيدية قبل دخولهم السنة الأولى بالكلية يتعلمون فيها اللغات الأجنبية حتى يصبحوا على قدم المساواة في تلك اللغات مع من يتظمون في الكلية من طلاب المدارس الثانوية المدنية .

وتغير هؤلاء الطلاب الجدد بين تعلم اللغات : الإنجليزية والفرنسية والألمانية ليتخذوا من إحداها لغة أساسية أولى ومن ثانية لغة فرعية . واختار الفتي الإنجليزية

لغة أولى والفرنسية لغة ثانية . وعكف على درس هاتين اللغتين الأجيبين ليل نهار ، وكان يدرسها له ولرفاقه مدرسون أجانب : إنجليز وفرنسيون من مدرسى أقسام اللغات الأجنبية في الكلية ، وكان تعلم الإنجليزية أسهل على الفتى من تعلم الفرنسية لصعوبة نبراتها وكثرة الحروف الصامتة في كلماتها .

وطوال هذا العام الدراسي كان الوفد - ومعه الأمة - يقاوم هو وصحفه صدق مقاومة باسلة ، بينما كان هو سادرا في بغيه وطفياه ، وبدأ العام في أكتوبر بإلغائه دستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستور أبرجدبد ، واحتجت الأحزاب : حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني ، واحتجت معها صحفها بشدة ، وهبت عواصف المظاهرات ، وقمعا صدق بقوة .

ولم يلبث صدق أن عمد في نوفمبر إلى تأليف حزب جديد من ذوى الأطلاع والمآرب العاجلة ليكون لحكمه سندا ، ولو سوريا ، وفعلا كان سندا سوريا هزيلة ، وقد سماه حزب الشعب - من باب تسمية الأشياء بأضدادها - وأنشأ له صحيفة باسمه ، وكأنما أعاد به من جديد حزب زيور وأعوانه في القصر : حزب الاتحاد الذى انهار من قواعده في انتخابات سنة ١٩٢٦ وغدا كأن لم يكن شيئا مذكورا .

وكان عباس العقاد - منذ تولى صدق الوزارة - يصليه نارا حامية بمقالاته الملتية ، وقد مضى يصبها فوق رأسه حميا لا يطاق ، وكانت كلمته السالفة في البرلمان : « إن الأمة على استعداد بأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه » لاتزال تتردد على الأفواه ، وسيطأ مقالاته السياسية لا تزال تكوى وجه صدق كيا ألما ، فدبر له هو وأعوانه محاكمة جائرة باسم العيب في الذات الملكية وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر طوالا .

وكان ذلك نكسة فظيعة للحريات في مصر إذ لم تعد السيادة للقانون بل

أصبحت للأشخاص الذين يسومون الأمة وأبناءها الأحرار العسف والقهر والبطش . وغضب طلاب الجامعة غضبا شديدا على صدقي بل أخذت الأمة بمختلف طبقاتها تعلن غضبها رغم أن الصحف كانت مقيدة وكانت الأفواه مكمنة ، وصدقي ومن ورائه القصر والإنجليز يحكمون الشعب بالحديد والنار . لقد داسوا بأقدامهم الحريات الشرعية للشعب وأبنائه الأبرار وألقوا بالعقاد كاتب الأمة الحر في غياهب السجون ، وكأنما وُضعت على مصر جميعها الأغلال وهي تترزع تحت أثقالها معلنة سخطها وغضبها ، وصدقي يغلق صحفها ، وكلما أغلق صحيفة خرجت صحيفة جديدة ترميه بشواظ من نار لا تتمد أبدا .

وفي شهر مارس سنة ١٩٣١ تم الائتلاف بين حزبي الوفد والأحرار الدستوريين لمناهضة صدقي ومقاومته ، وجعلوا لائتلافهم ميثاقا سموه عهد الله والوطن ، تعهدوا فيه بالنضال لإعادة الحياة الدستورية السليمة وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة انتخابات صدقي التي ينوي إجرائها . وقد مضى بعد العدة لإجراء هذه الانتخابات بتعطيل حرية الرأي وحرية الصحافة وحرية الكلمة وحرية الاجتماعات ، وضرب للانتخابات موعدا في شهر يونية ، حتى إذا كان اليوم الموعود حاول أن يفرضها على الأمة قسرا بقوة الجيش والشرطة وتحولت الشوارع في القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى إلى ساحات قتال ونزال بين الشعب وجنود الحكومة ، وامتد ذلك إلى بعض القرى في الريف وأريقت دماء زكية كثيرة . ولم يحدث انتخاب حقيقى ولا اقتراع حقيقى للأمة ، إنما حدثت معارك حامية بينها وبين جند الحكومة . وعمد صدقي إلى التزوير الشنيع لنتيجة الانتخاب ، فأعلن زورا وبهتانا أن نسبة من أدلوا بأصواتهم فيه بلغت $\frac{77}{100}$ ٪ وانعقد برلمانه المزيف في يونية ، ومضى في غيه وبغيه لا يرتدع ولا يزدجر .

وخرج العقاد من سجنه في يولية . وزار ضريح سعد زغلول ، ولم يكذب يصل

إلى فثائه حتى أسرع إليه جمهور كبير من الشعب لاستقباله . فأنشد فيه قصيدة طنانة أعلن فيها ثباته على مبادئه الوفدية وإصراره على الاستمرار في منازلة أعداء الأمة الآثمين . وقد صور حياته في السجن بكتابه المعروف : « عالم السجون والقيود » وهو أنشودة بديعة في الحرية ورفض الظلم والطغيان وأخذ يهوى بمقالاته بل بسياطه النارية على رأس صدقي وأعدائه وكلما أغلق له صحيفة كُتب في أخرى مصوباً إليه قلمه بل ربحه طاعنا به طعنات مصمية في صدره وصدور من وراءه من الإنجليز ومن القصر وحواشيه .

وبدا عام دراسي جديد وفيه انتظم الفتي في السنة الأولى بكلية الآداب مع الطلاب المدنيين الذين يدخلون الكلية في أول كل عام ومع من كان يدخلها معهم من الآنسات ، فقد كان لطفي السيد ، مدير الجامعة حينئذ ، فتح أبواب الجامعة للفتيات ودخلت كثيرات منهن كلية الآداب ، وتذكر الفتي أيام صباه في القرية ، وكأنما عاد من جديد هذا الاختلاط الذي بدأ به حياته التعليمية في القرية . وكانت الآنسات سافرات وكثيرون يظنون أن دعوة قاسم أمين إلى سفور المرأة المصرية انتظرت حتى دخلت الفتيات الجامعة والواقع أنها كانت قد نجحت النجاح المنتظر مع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ إذ خرج نحو ثلاثمائة من كرام العائلات في القاهرة نقودهن صفة زغلول في مظاهرة كبيرة محتجات بقوة على سفك الإنجليز للدماء الزكية في الثورة .

وفي الحق أن الحجاب إنما كان منتشرًا بين النساء في المدن المصرية بتأثير الأسر التركية التي عاشت طويلا في المجتمع المصري وكان يحاكي أسر المدن بعض أسر الريف وخاصة الثرية . أما عامة الريفيات فكان يشتغلن في الحقول مزاملات للرجال من قديم سافرات دون أي حجاب أو نقاب .

وكانت الآنسات في كلية الآداب موضع تقدير كبير لا من الأساتذة فقط بل

أيضاً من زملائهم جميعاً لما يأخذون به أنفسهم من الجدل مبالغت فيه إلى أقصى حد ، يُردّن التفوق على الشباب ويعملن له بكل ما يستطيعن حتى يزول إلى غير رجعة الاستخفاف بالمرأة .

وقد مضى الشاب يشارك زملاءه من الشباب وزميلاته من الأنسات في الاستماع إلى محاضرات الأساتذة في جميع مواد هذه السنة وكانت مواد عامة . إذ كانت سنة إعدادية تعدّ الطلاب للتخصص في أقسام الكلية المختلفة . وكان لكل قسم مادة في تلك السنة يدرسها الطلاب ، وكانت أقسام الكلية حينئذ سبعة أقسام هي أقسام اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والدراسات القديمة : اليونانية واللاتينية ثم أقسام الفلسفة والتاريخ والجغرافيا . وكان قسم الدراسات القديمة يدرس للطلاب في تلك السنة الإعدادية اللغة اللاتينية .

وكانت تروح الجامعة طوال العام بالغليان ضد صدق وحكومته الباغية . وكان على رأس الجامعة لطفى السيد وعداده في الأحرار الدستوريين . ومثله - حينئذ - طه حسين عميد كلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية بها . وحاول صدق أن يستدرج طه حسين لكي يكتب في صحيفة حزبه الزائف صحيفة الشعب ، وقلما كان يقرؤها أحد .

ورفض طه حسين رفضاً باتاً أن يكتب في صحيفة عدو الشعب ، ورد وسطاهه رداً غليظاً ، إذ كيف يتعاون مع مَنْ ألغى دستور الأمة وخنق الحريات واضطهد الأحرار وسفك دماء المواطنين الطاهرة في انتخاباته المزورة . فغزله صدق من منصبه في شهر مارس ونقله إلى ديوان وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن) فلم يذهب إليها وقدم إلى وزيرها استقالته .

وأضرب طلاب الجامعة . وكان يوماً مشهوداً ، فقد خرجوا في مظاهرة ضخمة

إلى منزل طه حسين وهناك ظل خطباؤهم يتبادلون الخطب في اعتداء صدق على الجامعة وظلوا يهتفون بحياة مصر وحياة مفكرها الأحرار . وغضب لطفى السيد مدير الجامعة بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقّدم إلى الحكومة استقالته .

وكان طبيعيا أن يهدد خروج طه حسين من الجامعة الطلاب الجدد الذين جاء بهم من الأزهر والتجهيزية ليكملوا دراستهم في الكلية وخاصة أن صدق وأعوانه ظنوا أن لهم يدا في حركة الجامعة الثورية ضد الحكومة ، وفعلّا خيروهم بين الاستمرار في الجامعة مع ما في ذلك من صعوبة تعلم اللغات الأجنبية بحيث يقفون على قدم المساواة مع الطلاب المدنيين الذين أمضوا في تعلمها سنوات طويلة ، وبين أن يعودوا من حيث جاءوا إلى الأزهر ودار العلوم . وعادت الكثرة الغالبة ، وكان الفتى بين من صمموا على إكمال التعليم الجامعي في كلية الآداب حتى النهاية ، ومضى يكبّ على دراسة الإنجليزية والفرنسية واللاتينية .

وكان الفتى يعجب بمحاضرات التاريخ ، وكان موضوعها تاريخ مصر ، وقد توزعه أساتذه القسم ، كلٌّ يحاضر في دورة من دورات التاريخ المصرى ، فكان أستاذ الفرعونيّات أو التاريخ القديم يحاضرهم في موضوع طريف اختاره ، هو المعاهدات التى عقدتها مصر بينها وبين جاراتها في الأزمنة العتيقة مصورا بما احتوت من مواد مختلفة دلالاتها الحضارية ، وأخذ أساتذة التاريخ بعده يتلونه في عرض تاريخ مصر زمن البطالة وفي الأزمنة الإسلامية والعصر الحديث ، وكان الأستاذ شفيق غربال أستاذ التاريخ في العصر الأخير بارعا في عرضه وإلقائه .

وكان الطلبة يتخوفون من اللاتينية والجغرافيا لكثرة من يرسبون بها في آخر العام ، وكان الراسبون في الجغرافيا أكثر وأوفر للصعوبة امتحانها التحريرى فحسب ، بل أيضا لصعوبة امتحانها الشفوى . ولا يزال الفتى يذكر امتحانه فيها

آخر العام ، وكان مطلوبا منه ومن رفاقه في الامتحان التحريري الإجابة على خمسة أسئلة ، وانتهى الوقت قبل أن يجيب على السؤال الخامس ، إذ انتهى الزمن المحدد دون أن يشعر ، ودون أن يتمكن من أخذ الفرصة للإجابة عليه .

واستعد الفتى بعد ذلك للامتحان الشفوي ، وكانت اللجنة الخاصة بالجغرافيا تضع بين أيديها أوراق الإجابة في الامتحان التحريري لمراجعة الطلاب في إجاباتهم إذا لزم الأمر ، وعجب إذ رأى המתحني يعيدون عليه نفس الأسئلة التي أجاب عليها في الامتحان التحريري . وبعد أن فرغ من إجاباته قال لهم إنني تركت السؤال الخامس لأن الوقت المحدد للإجابة كان قد انتهى وأنا مستعد الآن للإجابة على هذا السؤال غير أنهم لم يلتفتوا إلى ما قاله ، وأمروه بالانصراف مكتفين بما سمعوا منه . وكانت دهشة الفتى كبيرة حين ظهرت نتيجة الامتحان ، إذ عرف أنه نال أكبر

درجة في الجغرافيا بين أقرانه ، وهي ١٤ من ٢٠ في التحريري وكذلك في الشفوي . وإن الفتى ليحمد الله الآن أن اللجنة لم تزد درجته في الامتحان الشفوي عن درجته في الامتحان التحريري إذ ربما دفعه ذلك إلى دخول قسم الجغرافيا وترك قسم اللغة العربية الذي كان يتفق مع ثقافته وميوله الحقيقية .

وكان طه حسين حين خرج من الجامعة انضم إلى الوفد وأخذ يكتب في صحيفة « كوكب الشرق » ثم استقل بصحيفة خاصة به سماها « الوادي » وأخذ فيها يكرى لحم صدق الأئيم بسياط مقالاته ، وكان غُلُّ الوظيفة قد خُلِعَ عن حافظ إبراهيم بخروجه إلى التقاعد ، فانضم إلى المقاومين لصدق وأخذ ينشر أشعارا في الصحف مصورا فيها بطش صدق بمواطنيه وخنقه للحريات وكذب الإنجليز فيما يزعمونه من حيادهم ولهم يقول في بعض ما نشره :

املثوا البحر إن أردتم سفينا واملثوا الجو إن أردتم رُجوما
إننا لن نحول عن عهد مصر أو ترونا في التُّرب عَظْماً رَمِبا

وكانت قد تعددت حوادث القنابل ، وتعدد فيها المتهمون ، وكان يترافع فيها كبار المحامين الوفديين من أمثال مكرم عبيد ونجيب الغرابي ، وكانت مرافعاتهم أشبه بقنابل مدوية لما تثير في النفوس من الحاسة والبغضاء لصدق وعهده .

وصمم الفتى في العام الدراسي التالي ١٩٣٢/١٩٣٣ على أن يختار لتخصصه قسم اللغة العربية الذي جاء إلى الكلية من أجله ، وانتظم بين طلابه ، وكان هو ورفاقه يحملون في غدوهم ورواحهم الصحف التي يكتب فيها طه حسين والعقاد وهيكل . وحدث في شهر نوفمبر تصدع خطر في الهيئة الوفدية . إذ خرج منها عشرة كانوا من المعدودين في طليعة السياسيين المجاهدين من الوفديين ولم يلبث الوفد بزعامة النحاس أن ضم إلى هيئته اثني عشر عضوا جديدا ، فالتأم الجرح على مضض من الشباب الجامعي وألم مرير . ومما يحمد لمن انشقوا من الوفد أنهم ظلوا غاصمين لصدق ، وظل سادرا في حماقاته وفي عسفه وطغيانه وبغيه ، وصحف الأحزاب جميعا تعنف به وبجكمه عنفا شديدا . وكانت الوزارة قد نقلت إلى قسم اللغة العربية الشيخ أحمد الإسكندري أستاذ الأدب بدار العلوم ليشغل مكان طه حسين فيه ، وكان شيخا جليلا ، وله مؤلفات في الأدب وغيره ، وكان حجة لا يبارى في اللغة واشتهر ببحوثه اللغوية الفريدة ، وكان يأخذ الفتى ورفاقه بالجد في الدرس ناصحا لهم مرشدا ما استطاع من الإرشاد والنصح ، وذكر لهم يوما فيما ذكر من إكبابه على البحث أنه قرأ القاموس المحيط للفيروزابادي بمجلداته الأربعة وفي يده قلم ليكتب تَوَاقُل كلمة يجدها في هذا المعجم صالحة لأداء معنى حضاري جديد أو مصطلح علمي حديث . وبذلك ومثله كان يدفع الفتى ورفاقه للعكوف على القراءة والتحصيل والانتفاع بما يحصلون ويقرءون . وكان الفتى ورفاقه يدرسون الإنجليزية والفرنسية مع طلاب الأقسام المختلفة في الكلية ودرسوا مع اللغتين اللغة السريانية لعام واحد مع ما درسوا من الأدب والنقد والنحو .

وكانت هذه السنة الدراسية ١٩٣٢/١٩٣٣ بقية السنوات المجتدة التى حكم فيها صدق : سنوات عانت فيها مصر أزمة اقتصادية طاحنة ظلت تأخذ بنجاحها ، وكما تقدمت الأيام ازدادت هولاً لم يسبق له مثيل ، إذ هوت أثمان العقارات والحاصلات إلى الحضيض . وبدلاً من أن تعمل الوزارة على عون المزارعين والفلاحين أخذت تستخدم السياط فى القرى لجباية أموال الضرائب .

وكان صدق وأعوانه يشيعون أنه اقتصادى كبير ، وتبين إخفاقه إزاء تلك الأزمة الاقتصادية الخطيرة وأنه لم يجلب إلى البلاد إلا الخسار والبوار ، وإلا ما أذاقها من البطش والتنكيل بالمواطنين ، وإلا فساد الحكم فساداً من الصعب أن يُصلح بعده ، حتى إذا كان صيف هذه السنة أحس الطاغية الباغى بالإعياء ، والشعب يغلى والصحف ترداد عليه سخطا وعفا ، فاضطر إلى تقديم استقالته فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ وخلفه عبد الفتاح يحيى على رأس وزارة جديدة . وكانت وزارة عبد الفتاح يحيى صورة ممسوخة من وزارة صدق إذ تشبث بنظامه فى الحكم ودستوره الزائف ، وتبين سريعاً تحاذل حزب الشعب وبرلمانه ، فانه انفضَّ ثَوًّا عن صدق واتخذ رئيس الوزارة الجديد زعباً له ورئيساً ! . وهكذا ذهب صدق وكل ما دبره خلال سنواته الثلاث أدراج الرياح . .

وكان الفتى حينئذ فى السنة الثالثة بقسم اللغة العربية . وكانت الدراسة فيه محببة إليه وحقق خرج منه طه حسين ، أخرجه صدق ، ولكن كانت به صفوة من الأساتذة ، ملأت قلب الفتى وقلوب رفاقه حبا للمواد التى كانوا يدرسونها لهم وعناية بالتعمق فيها ، فهذا إبراهيم مصطفى أستاذ النحو يدرس لهم النحو بطريقة جديدة لم يألّفها الفتى فى الأزهر ولا فى تجهيزية دار العلوم ولا فى كتب النحو القديمة التى اطلع عليها . طريقة نقدية تحليلية ، يدرس فيها الباب من أبواب النحو دراسة تاريخية ، تصور آراء النحاة القدماء فيه على مر الأجيال ، ولا يكتفى الأستاذ

لك ، بل بعرض الباب مبيناً ما جاء عن العرب من شواهد شعرية فيه محاولاً أن ينفذ
 ن خلال ذلك إلى رأى جديد ييسطه للفنى ورفاقه ، وكان قد وضع نصب عينيه
 ، يخلص النحو من شوائبه الكثيرة التي جعلته أشبه بغابة ملتفة . وكان يحاول بكل
 هذه أن يفتح الأبواب أمام الفنى ورفاقه كي ينفدوا الآراء المتشعبة للنحاة في
 باب أو في المسألة الواحدة وما أناروه من علل وأقيسة . وكان الفنى يعجب بهذا
 اتجاه الجديد في دراسة النحو ، ويحاول النفوذ - على غرار أستاذه - إلى بعض
 آراء الجديدة ، وكثيراً ما كان الأستاذ يتسم ويقول له : ما أحراك أن تُعنى
 أليف القصص ، فإن عقلك كثير الخواطر كثير الاقتراحات والآراء .

وكان الفنى مثل رفاقه يُشغف بمحاضرات أستاذ البلاغة والتفسير أمين الخولى ،
 كان قد تخرج في مدرسة القضاء الشرعى : مدرسة عاطف بركات ، وعين إماماً
 سفارة مصر بإيطاليا وألمانيا ، فرأى الغرب ووقف على جوانب من الحضارة
 لفكر فيه ، وجعله ذلك يجمع بين القديم والجديد مع محافظة واضحة على القديم
 زيه ، فقد عاد بعد رجوعه من الغرب إلى الزى الأزهرى . وهو مع ذلك يكره
 نمود ويحب التجديد . وكان يحاول أن يصطنع نهجاً جديداً في تدريس
 لاعة ، وكان لا يزال يدفع الفنى ورفاقه إلى نقد كل ما يقرءون وأيضاً إلى نقد كل
 بدلى به من آراء ، وكان يتقبل أفكارهم بصدر رحب وسعة أفق غير مظهر لأى
 لب تبرما أو ضجراً مهما أطل في حوارهم معه وفي مناقشته وجداله . وكان الفنى
 فاقه يعجبهم فيه هذا الجانب ، فكانوا يستعدون دائماً لجداله وبأخذون الأهبة
 قشته وهو هاشم لهم ، بل ما يزال يستريدهم محاولاً أن يوضح لهم المصواب من
 ظناً . وكان قد اختار في التفسير للفنى ورفاقه أقسام القرآن الكريم في مطالع بعض
 ره لدراستها طوال العام . وأخذهم بقراءة كتاب التبيان في أقسام القرآن لابن قم
 وزية . وظل يحاول معهم بيان النسق القرآنى بين القسم في مفتتح سورة وما يليه .

وكانت دراسة أدبية طريفة مرّ فيها الطلاب من بعض الوجوه على التذوق الفنى
لآى الذكر الحكيم .

وبدأ الفتى فى هذه السنة بقسمه يدرس اللغة الفارسية وآدابها وكان أستاذ
عبد الوهاب عزام قد تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى : مدرسة عاطف بركات
وعُيّن إماما فى سفارة مصر بلندن . وهناك التحق بجامعة دارسا فيها اللغة الفارسية
وكان مثلا رفيعا من أمثلة الدأب العلمى الخصب ، وهو أول أستاذ مصرى
الفارسية للطلاب فى جامعة القاهرة ، وكان يؤمن بالعروبة والإسلام إيمانا عميقا
شاعرا بأن الوطن العربى جميعه وطنه بل إن الوطن الإسلامى جميعه وطنه
ويعصور ذلك كتابه : « الأوابد » تصويرا حيا . وجعلته دراسته للآداب الفارسية
يتعمق التصوف عند شعرائه الفرس وكان لذلك أصداء بعيدة فى نفسه ، إذ تم
بتزوع حقيقى إلى التصوف .

وكان عبد الوهاب عزام أديبا بارعا . عرفه الفتى فى أول سنة من سنيه فى كل
الآداب ، حين رآه وهو يناقش فى رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه ،
استطاع أن ينشر لأول مرة « الشاهنامه » للفردوسى ملحمة الفرس المشهورة . وكان
قد ترجمها الفتح البندارى نثرا إلى العربية فى أيام الأيوبيين وكانت بها صحه
ساقطة سقطت من يد الزمن ، فاستكملها وحققها تحقيقا علميا رائعا ، مما جع
مناقشيه يصفون عليه ثناء عظرا . وكانت دروسه فى الفارسية محبة إلى الف
ورفاقه ، وسرعان ما عرفوا الفارسية ، وكان يقتطف لهم منها أزهارا يانعة م
قصص الشيخ سعدى ومن أشعار حافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى ومحم
إقبال شاعر باكستان العظيم . وكان خفيف الظل لا يعبس فى وجوه تلامية
ولا يتجههم بل يتلقاهم دائما صافى الروح وادع النفس .

وكان من أساتذة الفتى المحبّين إليه فى هذه السنة الدراسية أحمد أمين أستاذ

الحياة العقلية الإسلامية ، وكان من خريجي مدرسة القضاء الشرعى ، وعليه درس فيها أستاذ اللغة الفارسية وأستاذ البلاغة والتفسير المذكوران . وحين تخرج فى مدرسته اختاره ناظرها عاطف بركات ليكون معيدا له فيما يدرس من علم الأخلاق لطلاب القسم العالى بالمدرسة ، وكان يوضع له كرسي يستمع مع الطلاب إلى عاطف بركات ، وهو يلقى دروسه فى علم الأخلاق ، وكان مما درسه معهم رسالة عن مذهب المنفعة للفيلسوف الإنجليزى « ستوارت ميل » جاء فى مقدمتها : « منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم على الشيخ فيثاغرس » فلقب الطلاب الشاب المعيد لأستاذهم : الشاب سقراط . وكان قد عكف على اللغة الإنجليزية فتعلمها ، وتبوأ مكانه فى قسم اللغة العربية سنة ١٩٢٦ ورأى أن يغير زيه وكان قد نُقل إلى كلية الآداب من القضاء الشرعى فغيرَ عمامته إلى الطربوش وخلع الجبة والقفطان ولبس البذلة انسجاما مع بيئته الجامعية الجديدة .

وكان أحمد أمين يُعد فى طليعة من جمعوا بين الثقافتين القديمة والحديثة جمعا رائعا يُعينه عقل بصير ونظر دقيق ودأب لا يماثله دأب فى البحث واستيعاب لا يدانيه استيعاب لكنوز الفكر الإسلامى وذخائره . وكان يحاضر الفقى ورفاقه فى الحياة العقلية الإسلامية ، ولم تكن صورة هذه الحياة واضحة فى نفوس المثقفين فأكبَّ عليها يدرسها ويدلّل صعابها وعقابها ، فإذا كل ما كان يحجبها عن الأعين يتزاح لا يفترق فى ذلك جانب عن جانب ، بل كل الجوانب يسلط عليه ضياء قوى . وساعدته على تسليط هذا الضياء ثقافته القديمة فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وثقافته الغربية الحديثة وما قرأه من آراء المستشرقين .

وكان الفقى يعجب إعجابا شديدا بكل ما يعرضه أستاذه أحمد أمين وخاصة حين يراه يتعمق فى وصف الظواهر العقلية للأمة العربية وما وضعته من العلوم وما صاغته من الأفكار . وكان دائما يوصى الفقى ورفاقه أن يعنوا بتسجيل

معلوماتهم في جذاذات وأن يتعودوا في بواكير حياتهم أن يلتقطوا من الكتب التي يقرءونها خير ما فيها ويدونوه في هذه الجذاذات أو الوريقات حتى إذا احتاجوا إليه في المستقبل وجدوه مدَّ أيديهم وتحت أبصارهم .

وكان يذكر للفقي ورفاقه أن الكتب القديمة غير مفهرسة وأن الباحث إذا لم يستخدم طريقة الجذاذات في أثناء قراءتها أفلتت منه المعارف الطريفة التي وقع عليها واضطر إلى قراءة الكتب ثانية . ولم يعرف الفقي قيمة هذه الوصية إلا بعد أن عُنى بالبحث وعرف بوضوح أنه فاته الكثير بسبب إهماله هذه الطريقة وانتكاله الخاطيء على ذاكرته ، والذاكرة كثيرا ما نخون صاحبها . وقد يذكر الإنسان الفكرة التي تصادف أن قرأها وينسى المصدر الذي جاءت فيه .

وكان ينهى طلابه أشد النهي عن الجدل العقيم وما يحمل من مغالطات ويكرر أن طريقة الجدل اللفظي عند القدماء حلت محلها في العصر الحديث طريقة التحليل والاستقراء . ولعل هذا ما جعل الفقي فيما بعد يحرص على ألا يتزلزل في مجادلة عقيمة لا تجدى نفعا . وجانب مهم فيه كان يعجبه هو ورفاقه ، وهو حسن انتقائه للنصوص التي تصور الفكر العربي الإسلامي ، وكأنما كانت لديه حاسة يلتقط بها أدق ما يقرؤه وأروع . وكان يألف الفقي ويوده مودة صادقة ، وهي مودة ظلت ترداد مع الأيام دعما وتوثقا .

وكان الفقي قد أخذ يقرأ في كتب النقد الأدبي الغربي ، يدفعه إلى ذلك ما رآه عند طه حسين والعقاد والمازني وهيكل من آثار مطالعائهم في تلك الكتب ، فرأى أن يزود نفسه ببعض الزاد منها ، حتى تتسع خبيرة بالأدب ومقاييس نقده . وكان كلما سمع باسم كتاب من كتب هذا النقد اشتراه وعكف عليه يقرؤه ، حتى إذا كان في هذه السنة الثالثة بقسمه صمم أن يأخذ نفس الطريق الذي أخذه من قبله كبار النقاد المذكورون وأن يكتب بعض المقالات النقدية في الشعر على ضوء النقد

الغربي الحديث .

وتصادف أن طه حسين -- وكان لا يزال خارج الجامعة - كتب مقالا في مجلة الرسالة عن قصيدة المقبرة البحرية للشاعر الفرنسي المتخلف بول فاليري حامل لواء الشعر والفلسفة في فرنسا حينئذ ، وأشاد بما في قصيدته من غموض . وانبرى كاتب عراقي يرد عليه قائلا : إن الغموض والجمال الفني لا يجتمعان في صعيد واحد وإن الوضوح هو مرجع كل جمال في الشعر ، وبدونه لا يمكن أن ينعت بالجمال ، ورد عليه الفني بمقال جعل عنوانه « حول الوضوح والغموض » أرسل به إلى مجلة الرسالة وكانت أهم مجلة أدبية أسبوعية في مصر ، وكان يكتب فيها أعلام الأدب من أمثال طه حسين والعقاد كما كان يكتب فيها أساتذة الجامعة النابيين .

وكان الأستاذ أحمد أمين هو الذي راجع في تلك المجلة المقالات النقدية ، لما ارتضاه منها أخذ طريقه إلى النشر وما رفضه أهمل ولم ينشر ، ولم يكن الفني يعرف ذلك ، وفوجئ به يقول له في مستهل إحدى محاضراته : أنا قرأت لك مقالك عن الوضوح والغموض ، وسينشر في العدد المقبل من مجلة الرسالة . وظل الفني ينتظر يوم صدورها بفارغ الصبر ليراه ، وراه في عدد اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٩٣٤ وكاد يطير فرحا حين أبصر مقالا له ينشر في مجلة الرسالة بجانب أعلام الأدب والنابيين من أساتذته .

وكان شعورا غريباً شعر به الفني حين قرأ كلامه لأول مرة بحروف الطباعة ، لقد كان معتادا أن يقرأه مخطوطا بقلمه ، أما أن يقرأه مطبوعا وفي مجلة أدبية ذائعة فإن ذلك حلم من أحلامه ، وقد أبصره يتحقق ، فيترل اسمه في فهرس مجلة مع طه حسين والعقاد وأحمد أمين ونظرائهم . ويقرأ المقال مقتبضا مبتهجا وكان حين عرف أن مقالا سينشر له في مجلة الرسالة سارع فكتب مقالا ثانيا بعنوان « ماهية الشعر » وقدمه إلى المجلة ، فنشرته في العدد التالي ، استقبله بالحديث عن تعريفات الشعر عند

العرب ، وفي الغرب ، ميينا أنها جميعا قاصرة عن أن تحيط بمعناه ، وناقش في المقال فكرة الابتكار التي أثارها أرسطو في كتابه عن الشعر وتحدث عن عناصره الأربعة : الفكرة والعاطفة والخيال والموسيقى .

وأحسن الفتي بسعادة غامرة ، فحللمه يتحقق ثانية ، وهامهم رفاقه يقرءون المقالين ويناقشونه في أفكاره ، لقد أصبح محط أنظارهم وموضع تقديرهم . وكتب كثيرا بعد ذلك ، كتب مقالات وكتبا ولكنه لم يشعر يوما بمثل هذه السعادة وهو طالب في السنة الثالثة بقسم اللغة العربية يكتب مع الأعلام من الأدباء ومن أساتذته في مجلة الرسالة الأسبوعية ، وكتب فيها سريعا مقالا ثالثا بعنوان « رسالة الشعر ومقالا رابعا بعنوان الشعر والفنون » تحدث فيه عن العلاقة الوثيقة بين الشعر والفنون الجميلة موضحا كيف أن كثيرين من الشعراء الغربيين يعنون بدراسة هذا الفن أو ذاك من الفنون الجميلة بحيث يكون الشاعر مثلاً شاعرا ورساما في آن واحد .

وكان عجب الفتي شديدا حين عاد إلى هذه المقالات في سن متأخرة ليرى بواكير كتاباته إذ راها بنفس الصورة التي يكتب بها حين علت سنه : صورة الأسلوب الرصين الذي يعنى صاحبه فيه باختيار الألفاظ وحسن موقعها في الأسماع ، مع الاهتمام من حين إلى حين بالصور والأخيلة يريد أن يجعله أسلوبا سائفا . وكان يظن أن رصانة أسلوبه أتمه - بمر الزمن - من قراءاته الكثيرة - فيما بعد - للباحظ وإعجابه بروعة أسلوبه . ويبدو حقا ما قاله بعض النقاد الفرنسيين من أن الأسلوب هو الشخص وأنه يوجد معه حين يمسك بالقلم حتى الأنفاس الأخيرة .

وكان كثيرون ينادون بعد سقوط حكومة صديق الطاغية بما ينبغي للعقاد من تكريم ، وأقيم له في أواخر شهر أبريل حفل تكريم في مسرح الأزيكية برباسة

مصطفى النحاس . وفيه خطب طه حسين خطابا ضافيا مشيدا بشاعرية العقاد ، وأنه بفضل له لم يرتحل - بوفاة شوقي وحافظ إبراهيم - سلطان الشعر عن مصر . ولم يلبث أن أعلن مبايعته له بإمارة الشعر العربي المعاصر قائلا : « ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء استظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » . وكانت وزارة عبد الفتاح يحيى تشغل كراسى الحكم طوال هذا العام الدراسى ، وكانت شخصيته ضعيفة ، فاستهان به الإنجليز والقصر وحواشييه ، وركع على قدميه أمامهم جميعا ، صادعا لمشياتهم ، منفذاً لرغباتهم . وظل على ذلك نحو عام يتلقى اللطبات من هنا وهناك حتى إذا لم يبق فى قوس كرامته متزع قدم استقالته فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ .

وخلفت وزارته فى الحكم وزارة محمد توفيق نسيم وقد استهلت عملها بإلغاء دستور صدقى : دستور سنة ١٩٣٠ ، وتنفست مصر الصعداء ، ولم يلبث أن أقام الوفد فى شهر يناير مؤتمراً كبيراً لبحث أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وظل المؤتمر منعقداً يومين ، وكبار خطباء الوفد يتبارون فيها من أمثال مصطفى النحاس ومكرم عبيد وأحمد ماهر وكأنما تحول المؤتمر وما كانت تنشره الصحف الوفدية من تلك الخطب إلى ما يشبه سوقا سياسية أدبية كبرى للشباب كى يمثلوا حماسة للوفد ومبادئه وسياسته من جهة ، وكى يغذوا مشاعرهم وعواطفهم الوطنية وأفكارهم بقطع خطابية من البلاغة الرائعة .

وحاولت وزارة نسيم أن تعيد دستور سنة ١٩٢٣ ووافق القصر ، وسرعان ما عارض الإنجليز فى عودته وبذلك انكشف الغطاء الذى كانوا يستترون خلفه زمن صدقى بإعلانهم الحياد فى كل ما يتصل بشئون مصر الداخلية إذ تبين بوضوح أنهم كانوا وراء إلغاء صدقى لدستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستوره الزائف الجديد .

وكان الفتى في السنة الرابعة النهائية بقسمه ، وكان طوال هذه السنة والسنة السابقة يشغف بمحاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وكان قد تخرج في الأزهر وتلمذ للإمام محمد عبده ، وقربه منه حتى كان يعدّه ابنه له ، لما رأى فيه من فرط الذكاء والدأب على الدرس ، ومما كتبه إليه في أثناء تلمذه عليه : « ما سررت بشيء سرورى أنك شعرت في حديثك بما لم يشعر به الكبار من قومك .. ، ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء » . وبعد تخرجه في الأزهر سافر إلى باريس والتحق هناك بجامعة السوربون ، ودعى بعد سنتين ليحاضر بجامعة ليون في الشريعة الإسلامية والأدب العربي ، وترجم إلى الفرنسية مع برنار ميشيل رسالة التوحيد لأستاذه الإمام محمد عبده ، وألفا معا عنه كتابا بالفرنسية . وله عنه كتاب بالعربية . وعين الشيخ مصطفى بكلية الآداب أستاذا مساعدا للفلسفة الإسلامية ، وظل يحتفظ بزيه الأزهرى في صورة أنيقة دون بهرجة ، وكان يخفُّ به وقار ومهابة وجلال ، كما كان يخفُّ به حب طلابه لسماحة نفسه وكرم شمائله إذ كان يفتح قلبه لهم ، وكان غاية في التواضع وأدب الحديث دون أى ترفع ، وكأنه أب رءوف أو صديق عطوف .

وكان يذهب في محاضراته مذهبا لم يسبق إليه هو أنه ينبغي ألا يعول في دراسة الفكر الإسلامى على كتب الفلسفة الإسلامية وبيان جذورها وفروعها فيه ، بل يعول على كتب أصول الفقه والتشريع الإسلامى حيث يتضح انضاحا تاما استقلال هذا الفكر وأنه لا يستمد من مصادر أجنبية ، بل يعتمد على ذاته إذ نشأت مقوماته وتطورت داخل العقل العربى الإسلامى الخالص ، وكان يتبع حياة هذا الفكر وأصوله تتبعاً علمياً خصباً .

وكان الفتى ورفاقه يشغفون شغفا شديداً بمحاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق

وما يثير فيها من آراء وأفكار ، وكان قد تعمق الثقافتين : الأزهرية القديمة والفرنسية الحديثة ، فكان محافظاً وفي الوقت نفسه كان مجدداً . أو بعبارة أخرى كان يجمع بين المحافظة وخير ما فيها والتجديد وخير ما فيه ، فهو من الرعيل الذى استظهر إلى أقصى حد شخصية أمتة الإسلام العربية المصرية مع التزود بالفكر الغربى الحديث تزوداً من شأنه أن يحل هذه الشخصية ويبرز خصائصها العقلية على نحو ما كان يبرز الشيخ مصطفى عبد الرازق الفكر الإسلامى بخصائصه ومقوماته وطابعه .

وكان ما يزال يعرض على الفتى ورفاقه فى محاضراته آراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين والعرب من أمثال رينان وكارادى فوجولد تسير والشهرستانى وابن القيم وابن خلدون ، ويناقشهم جميعاً محاولاً بكل قوته أن يرفع صرح الفكر العربى الإسلامى فى مجال أصول الفقه ، لبنة من فوقها لبنة ، وفكرة تملوها فكرة . وكان حين يتناول آراء القدماء والمحدثين من العرب والغربيين يحصيا ويستقصيا مع الإنصاف الشديد فى عرضها دون أى تحيف أو تعصب لفكرة أو لشخص ، وكأنما كانت فى يديه موازين عادلة ، فهى تزن بالقسطاس دون أن تميل يميناً أو يسرة . وكان لهذا الإنصاف والعدالة فى الأحكام والآراء أثرهما البعيد فى نفس الفتى ، إذ تعمقا ضميره ووجدانه .

وفى شهر ديسمبر من هذا العام الدراسى الأخير للفتى فى قسمه أعادت وزارة نعيم طه حسين إلى كلية الآداب بالجامعة وما إن علم طلابها بيوم مجيئه إليها حتى هرعوا من جميع كلياتها إلى استقباله وحملوه على الأعناق بين الهمس والنصفيق . وكان سرور الفتى عظيماً بعودة أستاذه الذى دخل الجامعة من أجله للاستماع إلى محاضراته ، واختار طه حسين أن يحاضر هو ورفاقه فى كتابين قديمين من كتب النقد العربى هما : كتاب نقد النثر الذى كان منسوباً خطأ إلى قدامة ، وكتاب الموازنة بين

أبي تمام والبحترى للآمدى ، واختار للفقى ورفاقه معها مقدمة كتاب تاريخ الأدب الإنجليزي للناقد الفرنسى « تين » ليتبينوا من خلالها تطبيقه على الأدب الإنجليزي نظريته المشهورة التى ذهب فيها إلى أن الأدباء تحكمهم فى آثارهم الأدبية دائماً ثلاثة قوانين : الجنس فلكل جنس بشرى خواصه التى تميزه ، والبيئة فلكل بيئة خصائصها الإقليمية التى تنفرد بها ، والزمان فلكل زمان أحداثه وظروفه السياسية والثقافية والدينية والاقتصادية ، وهى فى رأيه قوانين كقوانين الطبيعة ، قوانين جبرية ملزمة لا يعدوها أى أديب فى أدبه ، فهو أثر حتمى لها ، أثر لا يتخلف أبداً .

وكان الفقى ورفاقه يستمعون إلى محاضرات أستاذهم طه حسين فى هذه الكتب الثلاثة معجبين بملاحظاته وما ينثر من أفكاره التحليلية النقدية ، وكان يجلب ألبابهم بصوته الساحر ، صوت غداه فى صباه من قديم بعلم التجويد حين كان يتلو القرآن الكريم ويرتلّه على شيخه وعريفه فى الكتاب ، صوت تتند فيه الكلمات ومقاطعها ونبراتها ، وكأنها توقّع على آلة موسيقية .

ولم يعرف الفقى محاضراً شَدَّ إليه الأسماع وجذب إليه القلوب كما عرف ذلك عند أستاذه طه حسين . فقد كانت محاضراته وصوته فيها مهوى الأفتدة ، وكان أحياناً يلقبها بالجمعية الجغرافية أو بقاعة إيوارت فى الجامعة الأمريكية ، فكنت لا تكاد تجد مكاناً لا للجلوس فحسب ، بل أيضاً للوقوف ، وكل ذلك . أوقل كثير منه - بفضل صوته المحجب الرائع الذى اكتسبه لنفسه خلال تعلمه لتجويد الذكر الحكيم . وكان قد أتقن هذا التجويد صبيّاً ، وكثيرون مثله فى أيامه أتقنوه ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يلائم بينه وبين محاضراته ومغارج كلامه وصورة إلقائه كما لاءم طه حسين .

وكان طه حسين يضيف إلى ذلك ملكة أدبية خصبة وقدرة بارعة فى اختيار

الكليات وبث نسق صوتي بديع فيها : نسق يقوم على حسن الأداء واكتمال الجرس فيه حتى يبهير السامعين ويغلبهم بجمال لغته المصفاة العذبة . وقد يبدو في أساليبه وكلامه شيء من التكرار ، وكان بعض رفاق الفتي يلاحظ ذلك فكان الفتي يراجعهم فيه محاولا أن يلفتهم إلى أن تكراره ليس تكرارا لفظيا ، كما قد يتبادر إلى بعض من يسمعون أو يقرءونه ، بل هو تكرار معنوي لا يزال يدخل عليه إضافات ذهنية وخواطر عقلية بحيث يترابط بناؤه ويرتفع كصرح مشيد دون أى خلل أو نقص أو عوج بل مع النسق الصوتي الفريد ، ومع المتاع بالفكر الخصب الذى يعنى أشد العناية بالكليات ، أو بعبارة أخرى الفكر الثرى الذى يستطيع أن يستخلص دائما من الجزئيات الحقائق الكلية الكبرى ، مع عرضها فى صور وهيات تجليها وتدفع دفعا إلى تمثلها عن اقتناع . وقد يكون إعجاب الفتي بمحاضرات أستاذه وما كان يوفر لها من جرس صوتي بديع سببا من أسباب عنايته بأسلوبه وانتخاب ألفاظه ، وربما كان يتأثر أستاذه طه حسين أيضا فى عنايته بالكليات فى كتاباته ، إذ يحرص فيها دائما على التحول بما يقرأ من الدقائق والجزئيات إلى الكليات العامة .

وكان مصطفى كمال ماضيا - منذ إسناد رئاسة الجمهورية التركية إليه - فى تغريب تركيا أو جعلها جزءا من الغرب ، متخذًا من ذلك كل وسيلة ، حتى يحدث ثورة اجتماعية كبرى - كما أسلفنا - فى بلاده ، من ذلك أنه أصدر قانونا بأن يكون لكل أسرة تركية لقبها الخاص مما جعل الجمعية الوطنية الكبرى تطلق عليه لقب أتاتورك . ومعناه أبو الترك ، عرفانا بحميله فى تحرير البلاد والنهوض بها . ومن هذا التغريب لتركيا أن مصطفى كمال أمر بخلع الترك للطربوش شارعا زيهم واتخاذهم الزي الغربى والقبعة إعلانا منه بأنه لا رجعة فى هذه الحركة . وكانت المرأة التركية قد اقتحمت ميادين العمل منذ قيام الجمهورية . فدفعها فى هذا الطريق

حتى أصبحت على قدم المساواة مع الرجل في جميع الحقوق . وفي ربيع هذا العام : ١٩٣٥ جعل لها حق الاقتراع في الانتخابات حقاً مشروعاً ، ودخلت الجمعية الوطنية الكبرى لأول مرة سبع عشرة نائبة .

وأقبلت أيام الامتحان النهائي : امتحان اللسانس ، ولا يزال الفتى يذكر من الامتحان وأيامه طرائف ، منها أنه في ليلة امتحان الفارسية حلم أنه في محل كبير لبيع سجاجيد إيرانية وأنه اشترى منه ثلاثة سجاجيد ، وعجب إذ رأى إحداها مقطوعة في أحد جوانبها ، واشترها بهذا العيب . واستيقظ من حلمه دون أن يلتفت إليه ، وذهب إلى الامتحان ووزعت أوراق الأسئلة وتناول ورقته ووجدها ثلاثة أسئلة ، وأجاب عليها حتى إذا خرج من الامتحان عرف أنه أجاب إجابة كاملة عن سؤالين ، أما السؤال الثالث فعرف أن إجابته عليه ناقصة وظهرت النتيجة وعرف أنه أخذ في اللغة الفارسية وأدبها ست عشرة درجة من عشرين وكانت أقل درجاته من حيث نسبتها المئوية . وحينئذ تذكر حلمه ، وتعجب من هذا الانفاق بين الحلم والحقيقة ، وهو ممن لا يؤمنون بالأحلام ، مما جعله يعتقد أن هذا مجرد اتفاق حدث لحوفه من الامتحان في هذه المادة .

ودخل امتحان البلاغة ووجد بين الأسئلة سؤالاً عن ترتيب البلاغيين لصور التشبيه من حيث قيمتها البلاغية ، وهم يجعلونها ثمانى منازل أو ثمانى درجات يعلو بعضها فوق بعض بلاغياً . ومن الصعب أن يذكرها الطالب ويضعها مرتبة حسب منازلها الدقيقة ، فإذا فعل الفتى ؟ لقد رأى أن يذكر في إجابته الأسس التي رتب عليها هذه المنازل مع بيان أنها لا تفي ببيان درجات التشبيه وقيمتها البلاغية ثم وضع للتشبيه وأمثله ترتيباً بلاغياً جديداً .

ولقى أستاذ البلاغة الفتى فقال له لقد اعتبرت إجابتك عن هذا السؤال كاملة وقد أخذت أعلى درجة بين رفاقك . ولا ينسى الفتى إعجاب أستاذ الفلسفة

الإسلامية بإجابته في مادته ، وكان عادة يسأل سؤالاً واحداً يشغل الطلاب مدة الامتحان المقررة . وكانت ثلاث ساعات ، وكان قد قرأ إجابته وأعجب بها ، ولقيه قائلاً له : لقد حققت ظني .

ولا يزال الفتى يذكر امتحانه الشقوى في الأدب ، وكانت اللجنة مؤلفة من طه حسين وأحمد أمين . وكان قد ظهر للأخير قبيل الامتحان بأشهر معدودات كتابه « ضحى الإسلام » وقرأه الفتى قراءة متأنية ، وكان قد بسط فيه الحياة الاجتماعية بوجهيها المادى والمعنوى والحياة الثقافية بكل جداولها الإسلامية والعربية والأجنبية ، مصوراً ما أخذه العرب عن الفرس والهند واليونان وأهل الكعب السماوية . وسأل طه حسين الفتى هل اطلعت على هذا الكتاب ؟ وأجابه : نعم ، حيثئذ أخذ يتسع معه في مناقشة جوانبه وفي مدى اطلاعه على مصادره ، وكان من المصادر التي خصها بسؤاله كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ، فبمجرد أن ذكره الفتى سأله عن مؤلفه وعن عصره الذى عاش فيه وعن محتوياته ، وكان قد تصادف أن اطلع عليه الفتى في مكتبة الجامعة .

وأخذ الفتى يحاول الإجابة عن أسئلة أخرى لطله حسين تتصل بالكتاب ، وأعطاه أحمد أمين جزءاً من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وقد فتح له صفحة فيه ، وسأله أن يقرأ ما فيها من شعر ، وكان مقطوعة منسوبة إلى شاعر جاهلى ، وقرأها الفتى قراءة حسنة فيما يبدو لأنه لم يراجع في قراءته . وأخذ طه حسين يسأله عن صياغتها وعن معانيها ، ثم سأله عن مدى اقتناعه بأنها حقاً جاهلية وأخذ الفتى يحاول نقد صياغتها ومضى يبرهن على ما يقول من لغتها وأسلوبها . وقال طه حسين لصاحبه مبتسماً : لقد أكرثنا على الفتى من الأسئلة ، وحسبه ذلك . وكان الامتحان قد استغرق من الوقت نحو ثلاثة أرباع ساعة ، وشعر الفتى كأنما أَرْضَى أستاذيه الكبارين .



تخرج الفنى فى شهر مايو من سنة ١٩٣٥ وقد تجاوز سنَّ الفتوة وحدانة الشباب ، وكان السابق بين رفاقه ، ورأى أن يزور أستاذه طه حسين فى منزله ، فذهب إليه ، ووجده كأنما كان فى انتظاره ، وبعد أن هنأه على تفوقه فى الامتحان سأله أى عمل تريد أن تعمل فيه ؟ فتلعثم الشاب ولم يدر ماذا يقول ، وسرعان ما طلب طه حسين من سكرتيره أن يسأل هانفيا عن مدير إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية وردَّ المدير ، وحدثه طه حسين مقدِّما له تلميذه آملا أن يكون فى إدارة المطبوعات وظيفة خالية له ، ووعدته المدير بتدبير الوظيفة ، وسافر طه حسين إلى أوروبا كمعادته لقضاء الصيف بها . ولم يكتب للشاب أن يعين فى الوظيفة المبتغاة إذ كانت مصر حينئذ تمرّ منذ أيام صدق المشثومة بأزمة اقتصادية خانقة ، وكانت أبواب الوظائف مغلقة أمام الحريجين فى الجامعة وخاصة فى الكليات النظرية .

ورأى الشاب أن يزور أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وقد لقيه في منزله لقاء كريما ، ولم يكن منزلا أو قصرا للأسرة فحسب ، بل كان أيضا متندي كبيرا يجمع الأزهرى العصرى والمتقف ثقافة قديمة والمتقف ثقافة حديثة والوزير وغير الوزير من رجال الفكر والقلم . وكان أستاذه كوكب هذا النادى بما يجمع من الثقافة الحديثة والفكر الجديد مع التمسك الشديد بالشريعة الإسلامية وروح الإسلام .

وكل من عاش هذه الحقبة في تاريخ مصر يعرف ما كان لهذا المتندى من التأثير الواسع في الفكر المصرى حيثذ ، فلما ألم به الشاب راعه وقار المجلس ومن فيه ، ولاحظ ذلك عليه أستاذه ، فأخذ يتلطف إليه وبلغ من تلطفه أن كان حين يعرف جلساءه به واحداً بعد واحد يذكر لهم منصبا جامعيا رفيعا آملا أن يشغله الشاب بعد حين . وأخذ يقترب منه في الحديث مع أدب بالغ حتى يدنيه منه ، وحتى يرفع عنه ثقل ما أحسه فيه من كلفة ، حتى إذا رأى الشاب الانصراف ضرب له موعدا آخر يلتقى به .

ولم يكن هذا اللقاء الكريم للشاب شيئا آثره به الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد كان يلقي تلاميذه جميعا هذا اللقاء الباشّ البار ، وإن الشاب ليذكر ذلك كأنه بالأمس ويذكر معه لطف أستاذه طه حسين - بل لطف أساتذته جميعا - في لقائه إذ لم يكونوا أساتذة لتلاميذهم فقط ، بل كانوا أيضا آباء يمثلون لهم برا وعظما . ولا يذكر الشاب أنه لقي أحدا منهم إلا كان طلاقة وجهه مجسدة ومؤانسة ومودة . وبفضل هذه المترلة التى كانوا يرفعون إليها تلاميذهم . وبفضل الثقة التى كانوا يضعونها فيهم ، وبفضل ما غرسوه في نفوسهم من مثل عليا ، استطاع تلاميذهم أن يحققوا على الأقل بعض ما كانوا يؤملونه فيهم من شغف بالبحث والدرس . وأقبل العام الدراسى الجديد فى الجامعة وانتسب الشاب فيه إلى قسم الماجستير ، وكانت الصحف - وكذلك الأمة - لا تزال تضغط على محمد توفيق

نسيم حتى يعيد دستور سنة ١٩٢٣ وإذا صمويل هور وزير الخارجية البريطاني بصرح في التاسع من نوفمبر بأن حكومته نصحت الحكومة المصرية ألا تعيد هذا الدستور لأنه غير صالح . وبذلك بدأ للأمة ولشباب الجامعة أن الإنجليز يتدخلون علانية في شأن الدستور وشئون الشعب الداخلية ، حتى إذا كان اليوم الثالث عشر من نوفمبر يوم عيد الجهاد ثارت مظاهرات عنيفة ضد الإنجليز الغاشمين ، واستمر ذلك في اليوم التالي وخرجت جامعة قُواد (القاهرة الآن) نائرة ، وانجهمت من ساحتها إلى القاهرة لا يثنى جموعها الرصاص ولا إطلاق النار ، وسقط شهيدا عبد الحكيم الجراحي من طلبة كلية الآداب ومحمد عبد المجيد مرسى من طلبة كلية الزراعة . وتكررت المظاهرات في الأيام التالية وسقط في ميادين الجهاد شهداء عديدون . وتظل مصر نائرة غاضبة ، حتى إذا كان اليوم الثامن والعشرون من نوفمبر عم الإضراب في الجامعات والمدارس واحتجبت الصحف وأغلقت المتاجر والمصانع وعُطِّلت الأعمال ، ولبست القاهرة ثياب حزن رهيب وحداد أليم على أبنائها الشهداء الأبرار ، وشاد طلاب الجامعة في فنائها نصباً تذكاريًا لشهادتنا تخليداً لذكراهم العطرة ، وحفروا أسماءهم على قاعدته ، حتى لا تنساهم الأجيال القادمة أبداً . وفي اليوم السابع من ديسمبر أراحوا الستار عن النصب في احتفال مهيب ، واندفعوا إلى القاهرة في مظاهرة كبرى يهتفون بسقوط الاحتلال وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ .

وكان الطلاب قد أخذوا يسعون - منذ شهر نوفمبر - إلى عودة الائتلاف بين الأحزاب كما حدث في سنة ١٩٢٥ حتى تسترد مصر دستورها وحقوقها السياسية المكتسبة ، وكُلِّت مساعيهم بالنجاح في شهر ديسمبر فاشتلت الأحزاب وتكونت منها جبهة وطنية للمطالبة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ وإجراء انتخابات حرة والعمل على عقد معاهدة مع الإنجليز . وسرعان ما أعيد الدستور في الثاني عشر من ديسمبر

استجابة لمطلب الجبهة الوطنية . وأظهرت الأحزاب أنها لا ترضى عن وزارة محمد توفيق نسيم ، فقدم استقالته في يناير ، وألف على ماهر بعده الوزارة .

وبينا كان الشاب يحضر في مساء أحد الأيام محاضرة لأستاذه طه حسين كان يلقيها على طلبة الماجستير ، إذا أحد رفاقه يطلب إلى أستاذه أن يساعده في تعيينه بمجمع اللغة العربية ، ولم يكن طه حسين عضوا فيه حتى هذا التاريخ . وفوجئ بطه حسين بقول لرفيقه : إن زميلك فلانا رُشِّع فعلا لوظيفة محرر بالمجمع اللغوى ، ولم يكن فلان سوى الشاب ، وكان لا يعرف ذلك ، فتقدم إلى أستاذه شاكرا ، فقال له : لست أنا الجدير بالشكر لأنى لم أرشحك لهذا العمل إنما الذى رشحك له الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذك الذى عرفك أثناء محاضراته فى القسم حين خرجتُ منه ، فهو الذى اختارك لمعرفته السابقة بك حين كان يدرس لك .

وكان الشيخ أحمد الإسكندرى عضوا بارزا فى المجمع ، فذهب الشاب إليه شاكرا ، ولقيه لقاء كريما ، وقال له ينبغى أن تمضى توا إلى مراقب المجمع - وكان الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف - وتسلم منه العمل . وذهب الشاب إليه وتسلم العمل ، وانتظم فى المجمع يذهب إليه يوميا . ولم يسند إليه عمل يملأ به فراغ الساعات التى بمضيقها فيه ، إذ كانت أعمال المجمع لا تزال محدودة ، وكان به مكتبة غنية بالكتب ودواوين الشعر القديمة والحديثة فجعلها مرتاده اليومي .

وكان يقرأ حينئذ فى كتب النقد الغربى ، فرأى أن يضم إليها قراءة كتب النقد العربى ، واستطاع أن يتحول ما بها من ملاحظات نقدية إلى جذاذات أو وريقات بادئا باللاحظ ومنهيا بابن الأثير . ومن هذه الجذاذات ألف - فيما بعد - كتابا عن النقد العربى : وكتب مقالات مختلفة فى بعض المجلات الأدبية عن نقاد العرب المهمين .

وكان فى المكتبة دواوين للشعراء المهاجرين إلى أمريكا الشمالية والجنوبية من

أمثال جبران وفوزى المعلوف وأخيه شفيق ، فأكتب عليها يقرؤها . وكان قد بدأ التعرف على هؤلاء الشعراء حين كان صبياً في دمياط يختلف إلى دكان جاره التاجر اللبناني ولكن بونا بعيداً بين التعرف الجديد على هؤلاء الشعراء الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية والتعرف القديم ، إذ اتسعت مداركه وثقافته وعرف المذاهب الأدبية الغربية الحديثة وخاصة المذهب الرومانسى الذى تنعكس منه إشعاعات كثيرة على أولئك الشعراء .

وكان من أول ما عُني به وزارة على ماهر تأليف وفد للمفاوضات مع المندوب السامى البريطانى ومعاونه ، وتألف الوفد برئاسة مصطفى النحاس ، وفى الثامن من شهر مارس بدأت المفاوضات فى قصر الزعفران بالقاهرة ، وبينما كان على ماهر يعدّ العدة للانتخابات فى أول مايو توفى فؤاد ونودى بابنه فاروق ملكاً ، وألّف له مجلس وصاية ظل نحو سنة وثلاثة أشهر إذ لم يكن قد بلغ سن الرشد .

وأجريت الانتخابات فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٩٣٦ وفاز الوفد فيها بأغلبية ساحقة ، وألّف مصطفى النحاس رئيسه الوزارة وكانت وفدية خالصة . وكانت المفاوضات مع السفير البريطانى مستمرة وانتقلت فى أواخر يولية إلى قصر أنطونيادس بالإسكندرية ، وانتهت بوضع مشروع لمعاهدة أقرتها وزارة الخارجية البريطانية سريعاً فى ٢٦ من أغسطس . وكان أهم ما جاء فيها تضيق مناطق احتلال بريطانيا لمصر مع احتفاظها بعشرة آلاف جندي فى قناة السويس ، واستعدادها لإلغاء مصر الامتيازات الأجنبية ، وأن تضع مصر فى حالة نشوب حرب جميع مواردها تحت تصرف بريطانيا وأن تظل إدارة السودان تحت إمرة حاكم بريطانى عام .

وكان طه حسين قد انتخب عميداً لكلية الآداب ، وفى العام الدراسى الجديد ١٩٣٦/١٩٣٧ رأى أن تأخذ الكلية بنظام المعيدى لأول مرة فى تاريخها الجامعى ،

واختارت أقسام اللغة العربية والفلسفة والدراسات القديمة بعض خريجها ، ممن أثبتوا تفوقاً في الدراسة حتى يُعَدُّوا إعداداً علمياً حسناً . وكان الشاب من بين من اختارهم الكلية ، وكُلِّف بالمحاضرة لمجموعة من فصول السنة الأولى الإعدادية فيها ، وكانت محاضراته تتناول جوانب من النقد الأدبي .

ولا يزال الشاب يذكر نادرة حدثت له في إحدى محاضراته الأولى ، إذ كان عدد الآنسات لا يزال قليلا في المحاضرات ، وجرت العادة حينئذ أن يجلس في مقدمة الصفوف ويجلس الطلاب خلفهن ، ودخل الشاب المحاضرة ، فرأى الطالبات متثرات في المدرج والطلاب يجلسون في مقدمة الصفوف دون أي حسابٍ للطالبات . وأحس الشاب في ذلك خروجاً على التقليد المتبع ، فنبه الطلاب إلى خطئهم في هذا السلوك ، وأنه ينبغي دائماً أن يتركوا الصفوف الأولى للطالبات كما يصنعون في بقية المحاضرات .

وفي المحاضرة التالية فوجئ بترك الطلاب للصفوف الأولى للطالبات ، وهن يجلسن فيها ، غير أنهم تركوا وراءهن طائفة أخرى من الصفوف خالية ، ومنهم من ذهب إلى أعلى المدرج ، فطلب منهم أن يهبطوا من أماكنهم . وتردد نفر منهم في الاستجابة إليه ، فبدأ يلقي محاضراته بصوت خفيض ، فجاءوه وهم يتسمون . وتعود منذ الدرس الأول له في الجامعة . أن يمضي في محاضراته حتى انتهائها دون أن يخرج عن موضوعها أو ينطق بكلمة خارجة عنها ، فلم يحدث أن ذكر نقطة أو نادرة لطلابه . ومن أكبر الغلط - في رأيه - أن يشغل معيد أو مدرس أو استاذ جزءاً من محاضراته بفكاهة يعنُّ له أن يحكيها للطلاب أو أن يقصَّ عليهم حادثة وقعت له أو ذكرى من ذكريات ماضيه في الدراسة استجماماً أو استرواحاً . وحقا قد يصفق له الطلبة استحساناً ، ولكنه استحسان وقفي إذ سرعان ما ينكرون ذلك على محاضريهم . وأخطر شيء أن يصبح ذلك عادة للمحاضر فتلتصق به في

محاضراته ولا يستطيع منها خلاصاً . وليس من ريب في أن من حق الطلاب في الجامعة على المحاضر في أى موضوع أن لا يشغلهم بشيء سواه ، حتى يطرد نسقه في أذهانهم ، وحتى يتضح لهم نهجه فيه ومقدماته ونتائجه انصاحاً تاماً . وكانت الوزارة الوفدية برئاسة النحاس تحكم البلاد وتصرف شئونها طوال هذا العام الدراسي وكل شيء يدها مقابلده وزمامه . ويُذكر لها حينئذ أنها نقلت رفات سعد زغلول إلى الضريح الذى بُنى له يخوار بيت الأمة ؛ بيته وبيت قريته العظيمة ، كما يُذكر لها أنها دعت في شهر أبريل الدول صاحبة الامتيازات الأجنبية في مصر إلى مؤتمر عقد في مونترو بسويسرا وانتهى في مايو بإعلان الدول المذكورة إلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر إلغاء تاماً .

وبينا البلاد مستجيبة للنحاس ووزارته الوفدية إذا هو يحول تشكيلات للشباب موالية له إلى فرق سياسية وفدية سماها أو سميت فرق القمصان الزرقاء ، وسرعان ما استحوالت فرقا إرهابية لخصوم الوفد ، فهي تعتدى على اجتماعاتهم وعلى صحفهم . وكان ذلك خطأ كبيراً من النحاس إذ أصبحت حرية الرأى السياسى مهددة .

وشغل الشاب في هذا العام باختبار موضوع لرسالة الماجستير ، واختار لرسالته نشر كتاب من كتب التراث النقدي القديم ، وأخذ يحاول إعداده ، مع انتظاره لمصورات مخطوطات منه ماثورة في مكتبات إستانبول . ودار العام الدراسي وحل عام دراسي جديد دون أن تأتبه تلك المصورات ، فرأى أن يختار للماجستير موضوعاً جديداً هو النقد الأدبي في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ويعدّ الكتاب أهم مرجع للشعر العربى وشعرائه من العصر الجاهلى حتى نهاية القرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ويموج بملاحظات اللغويين والشعراء والنقاد على الشعر ، وهو في واحد وعشرين مجلداً ، وكأنما استهوته مجلداته الكثيرة .

وكان النحاس قد سار في وزارته سيرة حزبية ، تقوم على كثرة الاستثناءات في تعيين الموظفين من أنصاره وترقيتهم سريعا مفتاتنا على القوانين الحكومية دون مراعاة لأى كفاءة ، وساء ذلك وفدياً كبيراً هو محمود فهمى النقراشى ، كما ساء استخدام فرق القمصان الزرقاء في كبح المعارضة السياسية للنحاس ، فأصدر بيانا في سبتمبر دعا فيه النحاس ووزارته إلى النزول على إرادة المصريين في المساواة بينهم وفي احترام آرائهم السياسية ، وطالب بحل فرق القمصان الزرقاء .

وأجاب الوفد على هذا البيان بفصل النقراشى منه في سبتمبر ، ولم يوافق أحمد ماهر رئيس مجلس النواب على هذا القرار وأيد النقراشى في موقفه بعض الوفديين . وبدا كأن انشقاقا كبيرا سيحدث في حزب الوفد . وانتهاز القصر الفرصة في آخر ديسمبر وأقال النحاس ، وألف الوزارة في نفس اليوم محمد محمود . ولم يلبث الوفد أن فصل أحمد ماهر في أوائل يناير لتضامنه مع النقراشى ، وانضم إليها بعض الشخصيات الوفدية ، وكونوا حزبا جديدا باسم « الهيئة السعدية » جعلوا رياسته لأحمد ماهر .

أما محمد محمود فبدأ بتأجيل انعقاد البرلمان الوفدى شهرا ، وفي الشهر التالى حل مجلس النواب ، وحدد شهر أبريل لاجتماع المجلس الجديد ، وأجرى الانتخابات ، ففاز حزب الهيئة السعدية بثمانين مقعدا ، مما دفعه إلى التعديل في وزارته وإشراك حزب الهيئة السعدية فيها مع حزبه الدستورى ، وفي عهد هذه الوزارة تقرر إنشاء جامعة الإسكندرية كما تقرر في أواخر أغسطس إزاحة الستار عن تمثالى سعد زغلول بالقاهرة والإسكندرية .

وظل الشاب في العام الدراسى الجديد ١٩٣٨/١٩٣٩ منهمكا في إنجاز رسالته التى يعدها للحصول على درجة الماجستير ، وكان قد استخرج مافى كتاب الأغاني من نقد ، ومضى يكمل فصولها وطبعها . وفي شهر يناير نوقش فيها ونال الدرجة

المأمولة . وحمد الله كثيرا أن وُفِّقَ لاختيار هذا الموضوع ، لا لما ظفر فيه بتائج علمية في النقد الأدبي العربي القديم فحسب ، ولكن أيضا لأنه أتاح له أن يقرأ في بواكير حياته العلمية الجامعية أكبر مصدر للشعر العربي وشعرائه في الحقب الأولى . وبذلك سيطر مبكراً على مادة هذا الشعر التاريخية والنقدية ، وهي سيطرة مكنته - فيما بعد - أن يكتب في الشعر العربي وشعرائه مؤرخاً تارة وناقداً تارة أخرى . ولو أنه لم يتح له أن يقرأ هذا الكتاب بمجلداته الضخام التي تتجاوز عشرين مجلداً لظل الشعر العربي بتاريخه القديم الطويل محجوباً عنه ، ولا تزوى في عصر أو ركن منه يبحث فيه لا يعدوه ، أما وقد قرأ هذا الكتاب فإن أبواب هذا الشعر فتحت له ولم توصل أبداً في وجهه ، مما أعطاه فرصة ، بل فرصاً كبيرة ، كي يبحث فيه بحثاً كثيرة لا يقف فيها عند عصر بعينه دون غيره من العصور أو بيئة بعينها دون غيرها من البيئات .

وعقب امتحان الماجستير عرض طه حسين على الشاب موضوعاً للحصول على درجة الدكتوراه هو التكلف الشديد في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري وطلب إليه أن لا يبت في قبول الموضوع قبل أن يعرضه على هذا الشعر وشعرائه وأن يظل في هذا العرض حتى العام الدراسي الجديد ، فإن رآه جديراً بالبحث ورأى المادة العلمية فيه وافرة اشتغل به ، واتخذ موضوعاً لرسالته ، وإلا انصرف عنه . وعلى هذا النحو لم يكن طالب الدكتوراه يسجل موضوعاً لنيل درجتها بمجرد التفكير فيه وما يتبادر إليه من أنه صالح لدراسته ، بل كان يُطَلَّبُ إليه أن يظل أشهراً معدودات يَسِرُّ الموضوع المقترح لرسالته ويختبره ، لتضح له أغواره وتستبين له مادته ، وهل هي خصبة أو غير خصبة . ولو أنك قلت الآن ذلك لطالب يعرض موضوعاً للحصول على درجة الدكتوراه لعدده شيئاً غريباً عجيباً . وليس عجيباً ولا غريباً ، بل إن ذلك ينبغي أن يكون دائماً تقليداً لطالب الدكتوراه قبل

أن يسجل موضوعه نهائياً ويتقيد - ويقيد القسم - به حتى لا يتبين له - فيما بعد - أنه تسرع ، وأنه كان عليه أن يتمهل تمهلاً يقيه الندم أو ما يشبه الندم .

وظل الشاب يقرأ في شعراء القرن الرابع الهجري من أمثال المتنبي ومهيار وأبي العلاء ، وقرأ في الشعراء السابقين لهم من أمثال البخترى وأبي تمام ، حتى إذا كان مفتتح العام الدراسي الجديد لقي أستاذه بعد عودته من أوروبا ، وكان معتاداً تمضية الصيف بها سنوياً ، فقال للشاب : ماذا صنعت ؟ أجابه : إنني قرأت شعراء كثيرين ، وأخذ الموضوع يتضح في نفسي ، غير أنني أرى إحداث تعديل فيه ، ليكون دراسة لفن الشعر العربي منذ ظهوره إلى العصر الحديث ، فقد لاحظت أنماطاً من التصنع أو التكلف الشديد عند شعراء القرن الرابع وما بعده ، وأنه سبق هذه الأنماط مذهبان في صناعة الشعر ونظمه : مذهب كان يقوم على التصنيع أو التمنيق الحسى والمعنوى ، فالشعر ينبغي أن يكون محسنات عقلية وبديعية ، ومذهب ثان كان يقابله ، وهو أقدم منه ، هو مذهب الصنعة أو الجهد الذى لا بد منه فى أى عمل شعري . وارتضى طه حسين من الشاب هذا التصور للموضوع .

وكانت قد حدثت فى الصيف بعض أحداث سياسية تتصل بالوزارة فإن القصر طلب إلى رئيسها محمد محمود فى أغسطس سنة ١٩٣٩ أن يقدم استقالته ، وقدمها راضياً ، وألف الوزارة بعده على ماهر ، ولم يدخلها أحد من الأحزاب ، وكانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب ، فطلب إليه الإنجليز إعلان الأحكام العرفية ، فأعلنها فى أول سبتمبر .

واشتعلت الحرب بين الحلفاء وألمانيا ، وشُغل الناس وشُغلت الصحف بأخبارها ، حتى إذا كان شهر أبريل سنة ١٩٤٠ قدم الوفد إلى الحكومة البريطانية

مذكرة شديدة اللهجة ، مطالباً بأن تعلن إنجلترا توتاً : أنه بمجرد أن تضع الحرب أوزارها ستسحب قواتها من مصر ، وتلغى الأحكام العرفية التي جلبتها الحرب ، وتعقد مع مصر معاهدة تكفل لها حقوقها في السودان . ولم يتضح أثر لهذه المذكرة . وفي شهر مايو أقامت وزارة على ماهر احتفالاً كبيراً أزعجت فيه الستار عن تمثال مصطفى كامل للمقام في ميدانه بشارع قصر النيل .

ولم يلبث على ماهر أن قدم استقالته في شهر يونية ، وألف الوزارة بعده حسن صبرى . واشتركت الأحزاب معه فيها ، ما عدا حزب الوفد ، واستطاعت وزارته أن تنهض بعمل خطير في الشهر التالي لتوليها الحكم ، هو إلغاء صندوق الدين الذي فرضته أوروبا على مصر في عهد الخديوى إسماعيل لوضع رقابة أوروبية على شئونها المالية وظل وصمة في جبين حكام مصر ، حتى ألغته وزارة حسن صبرى . ولم تطل أيام حسن صبرى إذ توفى في شهر نوفمبر ، فألف الوزارة بعده حسين سرى . واشترك معه في وزارته حزب الأحرار الدستوريين . وفي عهد هذه الوزارة كثرت الغارات الجوية خاصة على الإسكندرية ، وأنشأت بها الدولة مخابئ كثيرة ، وبالمثل في القاهرة وبعض المدن الكبرى . وفي أواخر يولية سنة ١٩٤١ قبلت الهيئة السعدية الاشتراك مع حسين سرى في وزارته . ودخلها منهم خمسة وزراء . وكان الشاب في هذه الأثناء يقصر اهتمامه على رسالته التي يعدها للحصول على درجة الدكتوراه بوضع المذاهب الفنية للشعر العربي على مر العصور ، وظل يعنى يجمع مادتها من دواوين الشعراء على اختلاف بيئاتهم وتفاوت عصورهم ، ومن تراجمهم المبسطة في كتب الشعر العربي وتاريخه عند القدماء والمحدثين من العرب وللشعريين ، ومن كتابات نقاد العرب والغرب في النقد الأدبي وما نثروه من ملاحظات كثيرة على فن الشعر وصناعته . حتى إذا كان العام الدراسي الجامعى الجديد : ١٩٤٠/١٩٤١ ذكر لأستاذه طه حسين أنه ماض فى كتابة رسالته ،

وحبذا لو بدأ يقرأ فصولها معه ، وسرَّ أستاذه ، وجعل له يوماً معيناً في كل أسبوعين هو يوم الخميس ، وساعة معينة هي الساعة التاسعة وكان يذهب إلى أستاذه في الموعد المحدد فيجده دائماً في انتظاره .

وما إن استمع طه حسين إلى الفصل الأول من فصول الرسالة حتى أخذ يثنى على الشاب وعلى رسالته في اجتماعات قسم اللغة العربية . وكلما مضى الشاب في قراءة فصول رسالته على أستاذه ازداد ثناءه ، وهو ثناء كان يجعل الشاب يزداد تجويداً ودأباً في رسالته ، باذلاً لها كل ما يستطيع من جهد ومشقة حتى يرضى أستاذه ، وحتى يكون مستحقاً لثناؤه .

وإن الشاب ليذكر دائماً هذا الثناء الكريم ، وكيف كان يدفعه دفعا إلى مضاعفة جهده ، حتى لينجز رسالته - منذ تسجيلها - في نحو عام ونصف . وطه حسين بذلك كان أستاذاً مشرقاً على رسالة الشاب بالمعنى الدقيق للإشراف الأساتذة ، بحيث يستخرج من تلميذه كل ما عنده من طاقة ومقدرة .

ومن طريف ما يذكره الشاب عن أستاذه في هذه الفترة التي كان يعدُّ فيها رسالته أنه غدا عليه ذات يوم لقراءة فصل من فصولها ، فسأل الأستاذ التلميذ عن محاضرة له كان قد ألقاها في الجامعة الأمريكية فأجابه : « كانت محاضرة طيبة ، فقال له متعجبا : « طيبة فقط » . فقال التلميذ لأستاذه : كل ما تلقينه من محاضرات رائع . فاستغرق طه حسين في الضحك طويلاً ، واضعاً إحدى يديه على الأخرى ، ثم قال له : ما رأيك في أنني ظللت أعدُّ هذه المحاضرة في نحو شهر ، أقرأ لها كتباً مختلفة ، حتى استوعبت موضوعها ، وألقيت فيه المحاضرة التي سمعتها . وخجل التلميذ من أستاذه ، لأنه لم يكن يقرأ على باله أن يُعنى بالإعداد لمحاضراته العامة كل هذه العناية ، وخاصة أنه كان يمتاز ببراعة فائقة في الأداء ، براعة لم تتح لأي محاضر في أيامه . وكان لا يذكر اسمه وأنه سيلقي محاضرة عامة في

أى مكان حتى ينطلق إليه الجمهور ، يريد أن يستمع إلى بيانه المصفى ، وما يكاد صوته يرتفع بهذا البيان حتى تصفى إليه القلوب والألباب .
وكان ذلك درساً رائعاً للتلميذ ليعلم ، بل ليستقر في نفسه أنه لا يوجد عمل أدبي - محاضرة أو غير محاضرة - جدير بالتقدير مهما صغر حجمه دون أن يكلف صاحبه مثونة بمجهددة ومشقة متعبة . حتى طه حسين صاحب البيان الساحر الذى كان يجلب به مستمعيه يتحمل جهداً مضنياً لا فى بحوثه الطويلة وكتبه فحسب ، بل أيضاً فى محاضراته .

وكان التلميذ يكثر من ذكر ذلك لرفاقه مهوراً بأستاذه ودأبه فى السعى إلى مثله العليا فى كل قول يلقيه ، وكل بحث يُملّيه ، ملحاً دائماً فى هذا السعى ، مع ما اكتسب حينذاك من المجد الأدبي . وكان من الطبيعي للتلميذ أن يقتدى بأستاذه فى السعى العلمى المتصل ، وأن يحاول ، بكل ما يستطيع من جهد وعناء شاق إتقان رسالته .

ويبلغ من تقدير طه حسين لرسالة الشاب أن أذن له بالابتداء فى طبعها حين أوشك على الانتهاء منها . وعادة لا يؤذن للتلميذ بطبع رسالته التى بعدها لدرجة الدكتوراه إلا بعد قراءة الأستاذ المشرف لكل فصولها ، وكان طه حسين أراد أن يصور لتلميذه تقديره لما سمع من فصول رسالته وأنه أصبح واثقاً من نفوذه إلى غايته منها فى منهج سديد وطريق قويم .

وبدأ الشاب يطبع ما قرأه على أستاذه من فصول الرسالة من جهة ، ويكتب ويقرأ ما بقى منها عليه من جهة ثانية ، حتى إذا أتم طبعها قدمها إلى الكلية مع خطاب من طه حسين لتكوين لجنة المناقشين ، وكانت حينئذ تتكون من خمسة أساتذة . منهم الأستاذ العميد . ونوقشت الرسالة مناقشة علنية فى أواخر شهر يناير ، وغص المدرج رقم ٧٨ الذى عقدت فيه المناقشة بكلية الآداب

بحشد كبير من الطلاب والجمهور ، حتى لم يكذب في مكان لقدم . وفي أثناء تلخيص الشاب لرسالته حانت منه التفاتة ، فوجد أباه الشيخ واقفا مع عشرات من الطلاب مكدسين في مدخل المدرج ولم يكن أنبا أباه بيوم امتحانه ، غير أن أباه قرأ خبراً عنه في الصحف صباحا ، فسافر إلى القاهرة تَوّاً ، واتجه إلى الجامعة ، فسمع ابنه - وهو لا يزال على أبواب الجامعة الخارجية - يلقي تلخيص بحثه . وما أعجب الآباء : إنهم يمنحون أبناءهم الحياة والوجود ، ويمنحونهم أنفس ما يملكون : يمنحونهم القلوب والأفئدة وكل ما تشتمل عليه الأفئدة والقلوب من الحب الخالص لا يبتغون عليه جزاء ولا شكورا . ومهما صنع الأبناء لآبائهم ، ومهما قدموا لهم من العون ومن الرفق والود وصفو الحياة فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقوقهم ، لا حقوق رعايتهم وتربيتهم فحسب ، بل أيضا حقوق البرّ والرحمة والحنان والعطف والشفقة .

١٩٨٥ / ١٨٢٥	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١١٧٩-٦	الترقيم الدولي

١ / ٨٤ / ١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)